

سَمَاعَةُ الرَّجْعِ الَّذِي آتَى اللَّهَ الْعِظْمَى الْحَاجِجَ  
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِيُّ الْمَدْرَسِيِّ

# بَيْتَاتُ صِرْفِ الْمَقْرَبَاتِ

دَارِسَةٌ قُرْآنِيَّةٌ تَعْتَمِدُ اسْتِغْنَابَ السَّنَنِ . الإلهية مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَيَجْعَلُهُمْ أُمَّةً وَيَجْعَلُهُمُ الْوَارِثِينَ



# مُحْفُوظَاتٌ جَمِيعُ حَقُوقِهَا

الطبعة الأولى

٢٠١٥هـ / ١٤٣٦م

هوية الكتاب

- \* الكتاب: بينات من فقه القرآن، دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم (سورة القصص).
- \* المؤلف: المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.
- \* الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ / ٢٠١٥م. (٣١١ صفحة).
- \* تحقيق: مركز العصر للثقافة والنشر - بيروت.
- \* الناشر: دار المحجة البيضاء.



الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com



سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الَّذِي آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْحَاجُّ  
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِيُّ الْمُدَرِّسِيِّ

بَدَا مِنْ فَوْقِ الْقَلْبِ

دَارِسَةٌ قَرَأْنِيَّةٌ تَعْتَمِدُ اسْتِنْبَاطَ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ آيَاتِ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ

(سورة القصص)



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾<sup>(١)</sup>

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ<sup>(٢)</sup>

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ<sup>(٣)</sup>

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ<sup>(٤)</sup>

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ<sup>(٥)</sup>

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ<sup>(٦)</sup>

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ<sup>(٧)</sup> ﴿





## المحتويات

١١	تقديم.....
١٣	المقدمة.....
١٥	طسم.....
١٧	تلك آيات الكتاب.....
٢٠	من نبأ موسى وفرعون بالحق.....
٢٣	إن فرعون علا في الأرض.....
٢٩	ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين.....
٣٥	ونمكن لهم في الأرض.....
٣٩	وجاعلوه من المرسلين.....
٤٢	إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين.....
٤٦	لا تقتلوه.....
٥٠	وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً.....
٥٣	فبصرت به عن جنب.....
٥٥	وحرّمنا عليه المراضع.....
٥٩	ان وعد الله حق.....
٦٢	وكذلك نعزي المحسنين.....

- ٦٦ ..... هذا من عمل الشيطان
- ٧١ ..... رب إني ظلمت نفسي
- ٧٥ ..... فلن أكون ظهيراً للمجرمين
- ٧٨ ..... فأصبح في المدينة خائفاً يترقب
- ٨١ ..... أتريد أن تقتلني؟
- ٨٤ ..... فاخرج إني لك من الناصحين
- ٨٨ ..... رب نجني من القوم الظالمين
- ٩١ ..... عسى ربي أن يهديني سواء السبيل
- ٩٤ ..... ولما ورد ماء مدين
- ٩٧ ..... رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير
- ١٠١ ..... لا تخف نجوت من القوم الظالمين
- ١٠٤ ..... إن خير من استأجرت القوي الأمين
- ١٠٧ ..... ستجدني إن شاء الله من الصالحين
- ١١١ ..... والله على ما نقول وكيل
- ١١٤ ..... آنس من جانب الطور ناراً
- ١١٨ ..... أنا الله رب العالمين
- ١٢٢ ..... إنك من الآمنين
- ١٢٦ ..... برهانان من ربك إلى فرعون
- ١٣٠ ..... فأخاف أن يقتلون
- ١٣٢ ..... إني أخاف أن يكذبون
- ١٣٤ ..... أنتما ومن اتبعكما الغالبون
- ١٣٧ ..... ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين
- ١٤٠ ..... إنه لا يفلح الظالمون
- ١٤٤ ..... فرعون: ما علمت لكم من إله غيري!
- ١٤٧ ..... وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون

- ١٥١ ..... فانظر كيف كان عاقبة الظالمين
- ١٥٤ ..... أئمة يدعون إلى النار.
- ١٥٧ ..... هم من المقبوحين
- ١٥٩ ..... لعلهم يتذكرون
- ١٦٢ ..... ما كنت من الشاهدين
- ١٦٦ ..... ولكننا كنا مرسلين
- ١٦٩ ..... رحمة من ربك
- ١٧٢ ..... لولا أن تصيبهم مصيبة
- ١٧٥ ..... فلما جاءهم الحق
- ١٧٩ ..... فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى
- ١٨٣ ..... إن الله لا يهدي القوم الظالمين
- ١٨٦ ..... لعلهم يتذكرون
- ١٨٩ ..... هم به يؤمنون
- ١٩٢ ..... إنه الحق من ربنا
- ١٩٤ ..... يؤتون أجرهم مرتين
- ١٩٨ ..... لا نبتغي الجاهلين
- ٢٠٢ ..... الله يهدي من يشاء
- ٢٠٥ ..... أولم نمكن لهم حرماً آمناً؟
- ٢٠٩ ..... وكنا نحن الوارثين
- ٢١٢ ..... حتى يبعث في أمها رسولاً
- ٢١٥ ..... ما عند الله خير وأبقى
- ٢١٨ ..... أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه
- ٢٢٢ ..... أين شركائي؟
- ٢٢٥ ..... ما كانوا إيانا يعبدون
- ٢٢٨ ..... وقيل ادعوا شركاءكم

- ٢٣١ ..... ماذا أجبتم المرسلين؟
- ٢٣٤ ..... فهم لا يتساءلون
- ٢٣٧ ..... عسى أن يكون من المفلحين
- ٢٤١ ..... ما كان لهم الخيرة
- ٢٤٤ ..... وربك يعلم ما تكن صدورهم
- ٢٤٧ ..... له الحمد في الأولى والآخرة
- ٢٥٠ ..... أفلا تسمعون؟
- ٢٥٣ ..... أفلا تبصرون؟
- ٢٥٥ ..... الليل والنهار من رحمة الله
- ٢٥٩ ..... أين شركائي؟
- ٢٦١ ..... ونزعنا من كل أمة شهيداً
- ٢٦٤ ..... إن الله لا يحب الفرحين
- ٢٦٩ ..... إن الله لا يحب المفسدين
- ٢٧٤ ..... ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون
- ٢٧٧ ..... فخرج على قومه في زينته
- ٢٨١ ..... ثواب الله خير
- ٢٨٤ ..... ما كان من المنتصرين
- ٢٨٦ ..... ويكأنه لا يفلح الكافرون
- ٢٨٩ ..... والعاقبة للمتقين
- ٢٩٥ ..... من جاء بالحسنة فله خير منها
- ٢٩٧ ..... ربي أعلم من جاء بالهدى
- ٣٠١ ..... فلا تكونن ظهيراً للكافرين
- ٣٠٣ ..... أدع إلى ربك
- ٣٠٦ ..... له الحكم وإليه ترجعون



## تقديم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كان هذا الجزء (تفسير سورة القصص) من موسوعة (بينات من فقه القرآن) في مرحلته النهائية للإرسال إلى المطبعة عندما فوجئنا بنبأ وفاة الأخ الرسالي، الباحث والكاتب المجاهد، الاستاذ الحاج طالب خان، بسبب إصابته بنوبة قلبية عندما كان عائداً من زيارة مرقد السيد عبد العظيم الحسيني عليه السلام في مدينة (ري) في ضواحي العاصمة الإيرانية طهران، وذلك في يوم الاثنين المصادف ١٩ / ذو القعدة / ١٤٣٥ هـ.

ولقد كان الفقيه السعيد - الى جانب نشاطاته الرسالية في تربية الشباب المؤمن من الرسالي - مهتماً بالشؤون الثقافية وبالذات الدراسات والأبحاث القرآنية في مكتب سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي حفظه الله، حيث كان عضواً نشطاً في مؤسسة دار الهدى التي كانت تساعد السيد المرجع المدرسي في إنجاز موسوعة (من هدى القرآن) قبل ثلاثة عقود من الأمن مساعداً

لسماحة السيد المرجع في إنجاز موسوعة (التشريع الاسلامي) وأخيراً كان العنصر الفاعل في مكتب المرجعية لمساعدة السيد المرجع في إنجاز مشروع التفسير المفصّل الجديد (بينات من فقه القرآن) الذي طُبِعَ منه حتى الآن ستة أجزاء، وهذا هو الجزء السابع الذي يرى النور بينما الفقيه ودّعنا وهو يضع اللمسات الأخيرة لإعداده للطبع والنشر.

نسأل الله تعالى أن يجعله من أهل القرآن وخاصّته وأن يحشره مع الرسول المصطفى وأهل بيته عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام في جنان الخلد.

مكتب المرجع الديني آية الله العظمى المدرسي

٢٧ / ذوالقعدة / ١٤٣٥ هـ



## المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ  
وَأَلِهِ الْمَرْضِيِّينَ.

لماذا تحوّل ما سُمّي بالربيع العربي في أكثر البلاد التي اجتاحتها  
إلى خريف دموي، حسب رأي أكثر المواطنين في تلك البلاد؟

أنهر من الدماء، وبحار من الدموع، وعواصف من الآهات،  
وانهيار مؤسسات الدولة، وتراجع اقتصادي فضيع.. تلك كانت  
حصيلة ذلك الربيع الخريف. لماذا؟

إن ربنا سبحانه قد أحكم نظام ما خلق، وسنّ السنن لتدبير  
كل شيء، ومن ذلك جعل سنناً للإصلاح، وبالذات إصلاح النظام  
السياسي، ذلك لأن السياسة إذا فسدت أفسدت كل شيء. وكذلك  
قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا

أَذَلَّةٌ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿١﴾.

تلك السنن (الأنظمة) إذا رُوِعت رعاية تامة أثمرت نجاحاً باهراً، كالذي نجده في الحركات الإصلاحية الإلهية، وإلا فإن فرص النجاح تكون ضئيلة.

والشعوب العربية التي تآقت إلى الربيع، تجاهلت تلك السنن، فلم يكن نصيبها النجاح التام.

وهكذا كنا في تلك الفترة؛ أي منذ سنوات ثلاث، نتدبر في سورة القصص التي بين الله سبحانه فيها قصة حركة إصلاحية عظيمة، حيث بنو إسرائيل وبقيادة نبي الله موسى ﷺ انتصروا بإذن الله على فرعون وملئه، وقد بين ربنا من خلال تلك القصة السنن (الأنظمة) التي لا بد من رعايتها عند القيام بإصلاح الوضع السياسي، وقد حاولنا استفادتها بالمستطاع عند التدبر في آيات تلك السورة الكريمة.

وها نحن اليوم نقدم حصيلة ذلك التدبر للطبع، عسى الله ينفع به من أراد إصلاحاً، ولكيلا تذهب جهود الأمة سدى بسبب الغفلة عن تلك السنن، والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

٨ شعبان ١٤٣٥

---

(١) سورة النمل، آية: ٣٤.



طسم

﴿طَسَمَ ١﴾

\*\*\*

## من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في معنى ﴿طَسَمَ﴾: «فَمَعْنَاهُ: أَنَا الطَّالِبُ، السَّمِيعُ، المُبْدِئُ، المُعِيدُ»<sup>(١)</sup>.

## تفصيل القول

يبدو أن سور (الطواسيم) تنطلق في مسار واحد؛ حسبما نفهم من تذكير روايات النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام بها، ويبدو أنها تشير عبر الحروف المقطعة التي تقع في أوائلها، والتي قد تكون

---

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٢٢.

الرموز بين الوحي وبين شخص الرسول الكريم ﷺ وأهل بيته  
عليهم السلام. كما أن هذه الحروف تؤكد حقيقة هامة هي أن هذه الحروف  
هي ذاتها الحروف التي يتشكل منها النص القرآني عموماً، مما يعني  
إعجازاً؛ فمن حروف بسيطة تشكلت هذه الآيات التي احتوت على  
كل حكمة.

بلى؛ إن القرآن المجيد ذو مادة بسيطة وجوهر واضح يمكن  
لكل إنسان أن يقتبس من أنواره بما يسعه.

وهذه الأنوار تثير فينا الرغبة في المزيد من الوعي عبر التفكير  
والتدبر والاستضاءة بما أثر عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

### بصائر وأحكام

تثير كلمات الوحي فينا الرغبة في المزيد من الوعي الذي نحصل  
عليه عبر التفكير فيها والاستضاءة بما أثر عن النبي ﷺ وعن الأئمة عليهم السلام.



## تلك آيات الكتاب

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (٢)

\*\*\*

### من الحديث

عن الزهري قال: «سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ يَقُولُ: آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنٌ، فَكُلَّمَا فَتَحَتْ خِزَانَةٌ يُنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا» (١).

وقال الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مَنَارٌ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، فَلْيَجْلُ جَالِ بَصَرَهُ وَيَفْتَحْ لِلضِّيَاءِ نَظْرَهُ، فَإِنَّ التَّفَكُّرَ حَيَاةَ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمُسْتَتِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ» (٢).

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٦٠٩.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٦٠٠.

## تفصيل القول

كل ما تحتاجه البشرية من صغير أو كبير موجود في كتاب الله العزيز، ابتداءً من طريقة تدبير الإنسان لنفسه، وكيف يتعامل مع صحته ووقته وروحه وجسده، مروراً بتدبير الحياة الأسرية والعلاقة مع الأقرباء والأرحام والعشيرة وسائر أبناء المجتمع، وانتهاءً بالنظم الأصلح للحياة البشرية.

ولعل من أبرز ما في القرآن الكريم، كيف يدافع الإنسان عن كرامته، سواء كفرده أو كمجتمع أو كأمة.

بلى؛ القرآن المجيد ثورة ضد الذل والهوان.. إن الكرامة جزء لا يتجزأ من بصائر القرآن، لأنه لا يكفي بإدانة الطغاة والظالمين على طغيانهم وظلمهم، بل يعيب الناس أيضاً على خضوعهم للعبودية، بل ويرسم لهم خارطة واضحة المعالم لكي يتحدوا الطغاة، ويستردوا بالقوة حقوقهم من الظلمة، ويقدم لهم الأمل في تحقيق هذا الطموح وذلك بتوعيتهم معاني التوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه.

وهذه الميزة التي تتضمنها آيات القرآن هي التي تدفع البشرية إلى رحاب التحرر، والانعقاد من ربة الذل، وصنع حضارتهم المثلى. ولكن كيف يتم كل ذلك؟

في القرآن (ذلك الكتاب الإلهي) علامات على الطريق (آيات)، وأنها موضحة (مبين).

إنها حقاً تذكر الإنسان بما هو موجود في الفطرة، تلك الفطرة التي لا تتغير، ولذلك فإن الآيات القرآنية تشكل كتاباً ثابتاً لا يتغير.

بلى؛ إنه ثابت إلى الأبد. كلاً؛ إنه لا يتغير ولا بحرف واحد،  
وإنه يبقى نضراً لا تخلقه الدهور المتمادية، لأنه لا يتحدث عن  
وقائع الماضي إلا بما فيها من سنن ثابتة، وبالتالي يمكن استثمارها  
والاعتبار بها. كذلك أحاديث القرآن عن المستقبل وعن وقائع يوم  
القيامة والجنة والنار، تعد أحاديث عن واقع معاش عبر ذات السنن  
الإلهية التي لم تزل ولا تزال تجري في خلقه سبحانه وتشهد عليها  
الفطرة ويستحضرها العقل.

### بصائر وأحكام

آيات القرآن علامات على الصراط، وهي ثابتة لأنها تعبير عن  
تلك السنن الإلهية التي لم تزل ولا تزال. فهي عبر الماضي، وحقائق  
الحاضر، ووقائع المستقبل في الدنيا والآخرة سواء.



## من نبأ موسى وفرعون بالحق

﴿تَلَّوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿تَلَّوْا عَلَيْكَ﴾

أنت يا رسول الله معنيُّ أولاً بتلقي حقائق من التاريخ، لتبينها للمؤمنين (بسنن الله تعالى في خلقه).

والتلاوة تعني القول المنتظم الذي يتبع بعضه بعضاً.

٢- ﴿مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ﴾

حينما يكون الحديث عن قيادتين، فإنه يكون بالتبع عن أمتين ونظامين مختلفين ومنهجين متعاكسين.

الحديث هنا ليس عن كل تلك القصص، وإنما عن مفاصل مهمة من قصة النبي موسى عليه السلام وعن الطاغية فرعون لعنه الله.

ولعل سبب تقديم ذكر موسى عليه السلام على فرعون، لأن الأرض تعاني عادة من مثل فرعون، وإنما الحكمة هنا في التعرف إلى سلوك مَنْ تحدى أو يتحدى الطغاة.

وحيث يحدثنا ربنا المتعال عن فرعون، فإنه لا يتبع حديثه بلعن أو سب، وإنما يكرس القول عن أفعاله الإجرامية، لكي يتسع الحديث القرآني لكل من يشبه فرعون، نظراً لأن القرآن لا يهتم بالذاتيات بقدر اهتمامه بالواقع لتكتمل مساحة العبرة في قناعة الإنسان.

### ٣- ﴿بِالْحَقِّ﴾

هذه كلمة حملت في المنطق القرآني الكثير من البصائر. فكما خلق الله تعالى السماوات والأرض بالحق، كذلك هو سبحانه يتلو من نبأ موسى وفرعون بالحق.

فهو حديث حق (وقد وقع فعلاً). إنه ليس مجرد أسطورة أو خرافة، وهو كذلك حديث حق لأنه يتضمن أفكاراً صحيحة ذات أثر أو هكذا ينبغي أن تكون في نفس الإنسان. وهو حديث حق، لأن من يتبعه ويعتبر به يصل إلى الحق. فكل شيء فيه يتمحور حول الحق. ومثل هذا الحديث جدير بأن يُستمع إليه، ولكن من هم المستمعون لمثله؟ إنما هم المؤمنون.

### ٤- ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

وهكذا المستهدف من الخطاب وتلاوة نبأ موسى وفرعون بالحق، إنما هم الذين إذا ما استمعوا له آمنوا به.

## بصائر وأحكام

حينما يكون الحديث عن قيادتين، فإنه يكون بالتبع عن أمتين ذواتي نظامين متقابلين في كل شيء. والحكمة من هذا الحديث القرآني هو الاعتبار بسنن الله وبمنهج من يتحدى الطغاة، ثم ينصره الله عليهم.



## إن فرعون علا في الأرض

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا  
يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذِيعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ  
كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤﴾

\*\*\*

## تفصيل القول

لعل ما يسمى اليوم وفي لغتنا العصرية بالقيم، يسميها القرآن  
المجيد بالحكم، وشرائع الدين الإسلامي قائمة عليها، وعلينا أن  
نتبعها ونسير في أطرها. ولعل عددها في القرآن الحكيم، والمأثور  
عن النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام يناهز الثلاث مائة قيمة.

ومجموع هذه الحكم هي التي يشير إليها ربنا سبحانه وتعالى  
بين الفترة والأخرى، لكي ينتزع الخصوصية التاريخية للحوادث،  
فتترسخ من خلالها الحكمة، ولتعكس السنن الإلهية في الخليفة،

تلك السنن التي لا تتغير على مر العصور وتقدم الأجيال واختلافات البلدان.

وهكذا فإن الله تعالى إنما يقص علينا القصص لتكون العبرة التي يتعظ بها الإنسان، ولكي تكون منهجاً للحياة السعيدة. وفي هذه الآية الكريمة وفيما يليها، يذكرنا ربنا بما يُضاد القيم الحق من الظلم والضلال.

والقرآن المجيد يحدثنا عن قيم الحق وما يضادها بوصفهما أمرين متقابلين، ليكون أوضح بياناً وأبلغ حجة.

#### ١ - ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾

فرعون مهما علا وتخيل في نفسه الجبروت، فإنه يبقى كائناً أرضياً. ولعلنا نفهم كلمة العلو إذا ما طالعنا وتدبرنا في نص الآية الثالثة والثمانين من هذه السورة المباركة، حيث قال عز وجل: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْأَخْرَجُ نَجَعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ (١).

فالعلو مادة الفساد في الأرض بأشكاله وأنواعه. فهو محاولة التعالي على الآخرين من دون وجه حق، وهو ينتهي إلى انتهاك حرمة الآخرين وابتزاز حقوقهم، وبالتالي الاستكبار عليهم.

وعبرة هذه الواقعة أن كل من ينتهج نهج الاستكبار، إنما هو فرعون آخر، ولكن بحسب درجة علوه واستعلائه، وبالتالي فهو مدان. ولقد ذكرنا القرآن المجيد بهذه الحالة الفاسدة في هذه الآية،

---

(١) سورة القصص، آية: ٨٣.

كما في الآية الثالثة والثمانين، وكذلك عند حديثه عن قصة قارون الذي مارس الاستعلاء على الناس من قومه، غافلاً عن ربه المتعال واعتماداً على ثروته الطائلة.

بلى؛ إن العلو في الأرض والاستعلاء على الناس يساهم في افساد النظام الصالح الذي رسمه الله تعالى للخلق.

## ٢- ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾

المستعلي في الأرض يصر على أن يأخذ أكثر من نصيبه في الحياة بعد أن يقطع لنفسه من حقوق الآخرين، ولا يسعه ذلك إلا بأن يتدع منهجاً يساعده في هذا الإفساد يتمثل في التفريق بين أبناء المجتمع الواحد وجعلهم طرائق قديماً، ليضرب بعضهم ببعض وليتمكن من الهيمنة واستلاب حقوق الآخرين عبر نظام عنصري أو طبقي أو طائفي.

إن تفريق المجتمع وجعل أفراداً شيعاً ينتهي إلى حالة من الفساد رهيب، ولذلك يحرم من يمارس هذه الجريمة من الفوز بالجنة، لأنها موطن أولئك الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

وبين صفة الاستعلاء ونشر الفساد صلة مباشرة، وعلّة ذلك أن التفريق بين الناس وتعمد تفضيل بعضهم على بعض دونما وجه يؤدي إلى امتهان كرامتهم واستلاب عزتهم، وأنه هو الذي يستهدفه المستعلي لكي تتسنى له السيطرة على الناس وبسط نفوذه عليهم.

## ٣- ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾

إن المستعلي يمنح البعض شيئاً من الصلاحيات والإمكانات

ليسيطر بهم على الآخرين الذين يستضعفهم ثقافيًا وماديًا. إنه يحتقر طائفة بطائفة، ويصادر معتقدات وآراء طائفة بمعتقدات وآراء وأفكار طائفة أخرى دون أن يعترف بشيء ما سوى مصالحه الرخيصة. وهكذا يصادر ما لطائفة من إمكانات مادية لحساب طائفة أخرى يعطيهم أدوات ظلم وقمع. وأكثر من هذا، حين تراه قد يهدف من خلال استضعافه للناس غسل أدمغتهم ليأتوه طائعين، وذلك باستخدام الإعلام المزيف وربما باستخدام علماء السوء لتزيين الفساد وتحريف حقائق الدين لمصلحة الطاغية.

ومعلوم أن المستكبر أعجز من أن يستكبر بجهوده الشخصية، وإنما يعينه في ذلك أنصاره الذين يصدق عليهم الأموال ولو إلى حين؛ أي إنه قد يغرق جماعة ما بالإمكانات، ثم إذا استتب له الأمر عاد وفتك بهم أيضاً خشية من أن ينقضوا عليه بما صار لهم من المكنة والغلبة.. وهكذا هي دورة الاستعلاء في المجتمع.

٤ - ﴿يَذِيحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾

قد يتراءى للناس أن الاستضعاف حالة طبيعية، وذلك بسبب المفاجأة وعبر التزوير والتدليس، إلا أن ما أودعه الرب سبحانه في فطرة الناس من الكرامة، سوف يدفعهم إلى الثورة ضد استعلاء الطاغية، فينتهي به الأمر إلى تصعيد وتيرة العنف، حتى تراه لا يرعوي عن استخدام أبشع الأساليب في القمع، كالتقتيل وبأبشع صورته كالذبح الذي قد يطال حتى الطفولة البريئة. إن الظالم المستعلي يصل إلى حد الاستهتار بحياة جيل من الناس، ومحاولة قطع النسل تماماً.

أما الحكاية المروية عن أن فرعون رأى في منامه أحد أطفال

بني إسرائيل يشب ثم يقضي عليه، فعمد إلى ذبح أبناء الطائفة المستضعفة، فقد تكون صحيحة، إلا أن الطغاة عبر التاريخ في غنى عن مثل هذا المبرر ليمارسوا ظلمهم الفاحش وطغيانهم واستعلاءهم.. وهل كان بنو أمية بحاجة إلى رؤية في منام ليذبحوا الإمام الحسين عليه السلام وأطفاله الرضع في كربلاء؟!!

إن الإرهابيين الذين تصدر لهم الفتاوى من مشايخ الشر يستهدفون تصفية الأجيال لتحاشي احتمال الانتقام والثأر في المستقبل.

٥ - ﴿وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾

أي إن فرعون كان يبقي النساء على قيد الحياة، مع أنه كان يذبح أبناءهن باستمرار وعن سابق إصرار. ولو كان هذا الاستحياء بلا قصد سوء لما كان مما يؤذم عليه، ولكن لما كان منطق القرآن منطقاً عفيفاً، فإنه لم يذهب إلى تفصيل سبب أو أسباب هذا الاستحياء والإبقاء على قيد الحياة، مع أن المقطع التالي من الآية الشريفة يتناول التلميح إلى علة الاستحياء لنساء بني إسرائيل وغيرهم من المستضعفين.

٦ - ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

هذا تأكيد قرآني صريح أن أساس شخصية فرعون وطريقته في الحكم كان مبنياً على الفساد والإفساد، ومن ذلك أنه كان يستحيي النساء لأغراض الخدمة والإذلال والامتهان، واستثمارهن فيما يخل بالحياء والشرف.

ومعروف أن من أبشع أساليب الطغاة الاغتصاب الجنسي، والذي شاع في الفترة الأخيرة في بعض الحروب، واتخذ وسيلة

## الامتهان والإذلال.

ثم إن فرعون لم يكن المفسد الوحيد، وإنما كان من المفسدين، حيث كان يقف وراءه حشد من المفسدين يقوم على أكتافهم نظام فاسد.

وعبر هذا السياق نجد القرآن المجيد يضرب الأمثال لكي تعتبر بها الأجيال، وليعلموا أن من يسير على هذا الدرب سيضع قدمه في مواضع أقدام الشيطان وطغاة فاسدين كان مصيرهم شر مصير. كما أن هذه الآيات الكريمة تزود الإنسان بحقائق عن الشخصية الطغيانية، ليعلم أن من يخرج عن إطار الإرادة الإلهية لن يكون إلا فرعون آخر بقدر خروجه عن إطار هذه الإرادة.

## بصائر وأحكام

إن هناك صفات مشتركة بين المفسدين أبرزها الاستعلاء في الأرض وتمزيق المجتمع، لاتخاذ طائفة منهم أعواناً ضد الآخرين الذين يُستضعفون بكل وسيلة ممكنة، ومنها إرهابهم، وحتى بأبشع صورة ممكنة مثل ذبح الأطفال واستحياء النساء. وإن كل من يستعلي في الأرض له نصيب من هذه الصفات السوءى بقدر تمرده على إرادة الرب سبحانه.



## ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين

﴿وَرُبِّدُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ  
وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ ﴿٥﴾.

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا  
عَلَيْنَا بَعْدَ شَمَاسِهَا<sup>(١)</sup> عَطْفَ الضَّرُوسِ<sup>(٢)</sup> عَلَى وَلَدِهَا. وَتَلَا عَقِيبَ  
ذَلِكَ: ﴿وَرُبِّدُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً  
وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾»<sup>(٣)</sup>.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في قول الله عز

(١) الشَّمَّاسُ - بالكسر - : امتناع ظهر الفرس من الركوب.

(٢) الضروس: الناقة السيئة الخلق تعض حالبها؛ أي إن الدنيا ستنقاد لنا بعد جموحها  
وتلين بعد خشونتها، كما تنعطف الناقة على ولدها، وإن أبت على الحالب.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٠٩.

وجل: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ قال: «هُمُ آلُ مُحَمَّدٍ، يَبْعَثُ اللَّهُ مَهْدِيَّهُمْ بَعْدَ جَهْدِهِمْ فَيُعِزُّهُمْ وَيُذِلُّ عَدُوَّهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي الصباح الكناني، قال: «نَظَرَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَمْشِي، فَقَالَ: تَرَى هَذَا؟ هَذَا مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾»<sup>(٢)</sup>.

وعن المفضل بن عمر، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى عَلِيِّ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَبَكَى، وَقَالَ: أَنْتُمْ الْمُسْتَضْعُونَ بَعْدِي. قَالَ الْمُفْضَلُ: فَقُلْتُ لَهُ: مَا مَعْنَى ذَلِكَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: مَعْنَاهُ أَنَّكُمْ الْأئِمَّةُ بَعْدِي. إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾، فَهَذِهِ الْآيَةُ جَارِيَةٌ فِينَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٣)</sup>.

وعن زيد بن سلام الجعفي، قال: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي جَعْفَرٍ، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ؛ إِنَّ خَيْمَةَ الْجُعْفِيِّ حَدَّثَنِي عَنْكَ أَنَّهُ سَأَلَكَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾، وَأَنْكَ حَدَّثْتَهُ: أَنَّكُمْ الْأئِمَّةُ، وَأَنَّكُمْ الْوَارِثُونَ. قَالَ: صَدَقَ وَاللَّهِ خَيْمَةُ، لَهُكَذَا حَدَّثْتَهُ»<sup>(٤)</sup>.

(١) الغيبة، الشيخ الطوسي، ص ١٨٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ٣٠٦.

(٣) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٧٩.

(٤) تفسير فرات الكوفي، الشيخ فرات الكوفي، ص ٣١٥.

## تفصيل القول

### ١- ﴿ وَرِيدُ ﴾

إن هناك إرادتين لربنا المتعال سبحانه: إرادة أمر، فإذا أراد شيئاً، قال له: كن، فيكون. وإرادة سنن تجري مع الزمن حسب تقديره سبحانه.

ويبدو أن الإرادة في هذه الآية الكريمة من القسم الثاني، ذلك لأن التحولات الكبرى عبر التاريخ لا تكون بين عشية وضحاها، بل كما قدر الرب بحكمته البالغة.

ولعل صيغة الجمع الواردة في فعل الإرادة هنا ﴿ وَرِيدُ ﴾ قد وردت للإشارة إلى عظمة هذه الإرادة. بل يمكن الاستلزام من هذه الصيغة كون تحقيق هذه الإرادة لعظمتها وشمولها يكون عبر السنن الجارية، ومنها مساهمة جنود الرب في تحقيقها، ومنهم الصالحون من عباد الله الذين يكافحون من أجل تحقيق ذلك الهدف الأسمى الذي قد يكون هدف الخلق برمتها، ألا وهو استخلاف الصالحين في الأرض وطردهم الأشرار والشياطين الذين لاثوا الأرض بضلالتهم وأفسدوا في الأرض، وقد قال ربنا في سورة أخرى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال عز وجل هنا:

### ٢- ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ ﴾

إن المنة هنا وعد رباني لمن استضعف، سواء كان هذا

(١) سورة الأنبياء، آية: ١٠٥.

المُسْتَضْعَف من الصالحين أو كان ممن يميل إليهم دون أن يبلغ مرتبة الصلاح الكافي، وهو تعبير عن أن ربنا سبحانه قائم بالقسط، وقد قال سبحانه في سورة أخرى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١).

وحيث إن الله (يمن) فهذا يحكي أمراً غيبياً فوق إرادة البشر، وحتى فوق بعض الأنظمة الاجتماعية والسياسية الحاكمة.

بلى؛ إن الله تعالى لا يرضى لشعب كامل أن يُسْتَضْعَف، وإنما يمن عليه بحسب إرادته النافذة في خلقه وينصره بقدرته وفضله وجوده وكرمه. ولعل من آفاق منتهى بعث الأنبياء ﷺ، إذ قال ربنا في سورة أخرى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٢).

أما إطلاق كلمة الأرض، فلعلها تعود إلى أن الإنسان قد يُسْتَضْعَف في بلد ما، ولكن الله أتاح له أن يهاجر إلى بلد آخر. فهذه الإتاحة نوع من الخلق له.

٣ - ﴿ وَجَعَلَهُمْ آيَةً ﴾

ونستفيد من هذه الكلمة بصيرتين:

الأولى: إن الاستضعاف قاع المجتمع، بينما الإمامة أعلاه، والله تعالى وبقدرته الواسعة يرفع المستضعفين من ذلك المستوى الأدنى إلى أعلى مستوى؛ وهذه منة كبرى.

(١) سورة آل عمران، آية: ١٨.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٤.

الثانية: إن إمامة الناس لا تكون إلا بموجب جعل إلهي مباشر، ولا دور للناس فيها، وقد يؤتي ربنا هذه الفئة من القدرات ما يؤهلهم للإمامة حتى على الناس الذين يخالفونهم في الدين، كما مكن يوسف الصديق في مصر بما آتاه من الكفاءة العظيمة.

#### ٤ - ﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

ولعل الوراثة تعني هنا امتلاك ما يتركه الطغاة من أراضٍ وأبنية، كما حصل لبني إسرائيل بعد هلاك الفراعنة، حيث قال ربنا سبحانه في آية كريمة: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

والله تعالى لا يبعث المستضعف إلى أرض ثانية ليكون إماماً فيها، بل إنه سبحانه يرفع من شأنه حتى يجعله إمام الناس في ذات الأرض التي كان مستضعفاً فيها، ثم أضحى إماماً. وهذا التحول هو آية قدرته القاهرة سبحانه، حيث يهلك الملوك ويستخلف آخرين.

والوراثة هنا ورد لفظها بصيغة الإطلاق لتشمل كل الحالات، وكل الأشياء، وكل المساحة الزمنية.. مما يجدر بالمستضعف ألا يخشى سرعة فقدان ما ورثه، بل إنه سيبقى مستمراً إلى ما شاء الله.

وبالرغم من أن الآية هذه مطلقة لكل مستضعف، إلا أن أجلى مصاديقها والذي استفاضت النصوص عليها يتمثل في الوعد الإلهي بظهور القائم من آل محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، الذي أراد الله تعالى أن يكون إماماً ووارثاً للأرض، ليكون حكمه مثلاً أعلى لكل عدل وقسط، حينذاك يكون ظهوره بمثابة قيامة صغرى.

(١) سورة الدخان، آية: ٢٨.

## بصائر وأحكام

- ١- إن التحولات الكبرى في التاريخ، لن تقع بين عشية وضحاها، إنما تتبع السنن الإلهية التي يكون لعامل الزمن دور أساسي فيها. وهكذا على المؤمنين ألا يملؤوا من انتظار الفرج الإلهي.
- ٢- إن إمامة الناس الحق إنما هي جعل إلهي خاص، ولا اختيار للناس فيها.
- ٣- وإن مسيرة الحياة الدنيا تتقدم وتتكامل، حتى يظهر قائم آل محمد عليه السلام، حيث دولة العدل والكرامة.



## ونمكن لهم في الأرض

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ ﴿٦﴾.

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾

للتمكن معنيان:

الأول: تحوُّل السلطة وأخذ زمام الأمور، وهذا المعنى هو الظاهر من الكلمة.

والثاني: أن الله تبارك وتعالى يوفر لهذه السلطة الإيمانية الإلهية ما لم يوفر لغيرها، حيث تخرج الأرض أثقالها وما فيها من خيرات وتتنزل السماء بالنعيم.. ذلك لأنهم الأئمة الوارثون الممكن

لهم في الأرض قد آمنوا واتقوا، فأنزل الله عليهم بركات السماء والأرض.

ثم إن تمكين المستضعفين من قبل الرب المتعال أوسع مدى من مجرد انتقال سلطة من جماعة إلى أخرى، لأن في مجرد الانتقال استمراراً لما كانت في السلطة السابقة من السلبيات، بينما المطلوب إنما هو الاختلاف في طبيعة الحكامين، سواء في مبادئ الحكم أو في أنظمتهم أو في علاقة القائمين به مع الله سبحانه الذي بيده مقادير الأمور.

٢ - ﴿وَأُورِي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِمَّنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

إن المعاجزة التي كانت بين المستضعفين والفراعة جعلت كل فريق يبذل ما لديه من قوة لكسب المعركة، وكانت الكفة الراجحة ظاهراً لصالح الطغاة لسيطرتهم على كل ركائز القوة، وقد استنفذوها في الحرب، لأنهم كانوا على علم بما يريده المستضعفون، وكانوا على حذر منهم، ولكنهم مع ذلك فشلوا. متى؟ حينما أراد الله نصر عباده.

ومن هنا نعرف أن انتصار المستضعفين لم يكن صدفة وفي غفلة من الزمن. كلاً؛ وإنما كان لأن الله أراد ذلك، وإرادته فوق كل شيء.

وهكذا تتجدد هذه الواقعة كلما كان مستكبرٍ ومستضعفٍ، لأنها تعكس سنن الله في خلقه.

وقد ذكر القرآن الكريم هامان مع فرعون، لعله لأنه كان يمثل القوة التنفيذية للطاغية (أو ما يُسمى بالحكومة)؛ كما ذكر اسم

الجنود وهم أعوان الظلمة. ولعل الكلمة تشمل كلاً من العسكريين والمدنيين. ونستفيد من ذلك أن كل الطبقة الحاكمة تتبدل كلياً، ولا يبقى أحد من الظلمة وأعوانهم إلا ويُسْتبدلون بإذن الله.

ويبدو أن في الخطاب في هذه الآية رسالتين؛ رسالة إلى الفراعنة عبر التاريخ، وأنهم عاجزون مهما بذلوا من جهود عن إيقاف زحف الحركة الإيمانية إليهم، حيث لن يستطيعوا إلى منعها سبيلاً.

والرسالة الأخرى إلى المؤمنين؛ وهي أن الله تعالى منجزٌ لهم ما وعدهم، إذ في هذا الوعد تحقيق لإرادة الله تعالى في خلقه على الأرض، حيث لا يمكن أن يعقل أن الله تعالى خلق الأرض ليحكمها الفاسقون المجرمون البعيدون عن إرادته السامية.. كلاً؛ إن إرادته سبحانه تفضي إلى تمكين الفريق الصالح في الأرض.

ثم إن النص القرآني الشريف يوحي بأن الله تعالى سوف يُري الظلمة ما يحذرون من المستضعفين، سواء كان أولئك الظلمة على رأس الهرم أو كانوا في قاعدته كأدوات بيد القيادة (الجنود)، لأنهم جميعاً كانوا يرتكبون الجرائم ويقومون بممارسة الذبح بحق المعارضين، وممارسة الانتهاك لحرمتهم وحرمات نسائهم.. فيوقعهم الله فيما كانوا يحذرون منه ويسلط عليهم المستضعفين لينتقموا منهم. وآية ذلك، أنه سبحانه وتعالى قد أرى فرعون وهامان وجنودهما أنه كيف مكر بهم واضطرهم إلى احتضان النبي موسى ﷺ، الذي كان قد قدر الله تعالى أن يكون هو من يُنهي حقبة فرعون السوداء.

أقول: حينما نتدبر آيات الذكر الحكيم ونطبقها على الواقع، وبالذات على الحوادث الواقعة المحيطة بنا، سواء العامة منها أو

الخاصة، نذوق حلاوة خاصة ونلمس نوراً، لأن تطبيق الفكر على الواقع يمنح الفكر مزيداً من الوضوح، ويعطي الواقع مزيداً من النور. ومن هذه الآيات الشريفة نستفيد أن الله تعالى قد أراد لهذه الأمة النجاة من بطش الطغاة، لأنه تبارك وتعالى قائم بالقسط ولن يسمح للجبابرة أن يتمادوا في غيهم، بل يأخذهم في لحظة مميزة أخذ عزيز مقتدر، وذلك حين تنتهي مهلة امتحانهم وابتلاء الناس بهم. أليست الحياة دار ابتلاء وامتحان؟

## بصائر وأحكام

١- إن تمكين الرب المتعال أكبر من مجرد انتقال سلطة من جماعة إلى أخرى، لأن مجرد الانتقال قد يستصحب السلبيات الماضية، إنما المقصود تمكين المستضعف مع تباين الحكيم في المبدأ والسلوك.

٢- وعندما يمكّن ربنا أحداً في الأرض يوفر له وسائل الاستقرار والاستمرار.

٣- وإن الله سبحانه يمكّن المستضعفين بالرغم من حذر المستكبرين، ورغم أنهم، وبالرغم من كل المكر الذي يمكرونه في مواجهتهم.



## وجاعلوه من المرسلين

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ  
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ۝

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾

حينما أراد الله عز وجل أن ينقذ بني إسرائيل من فرعون، بدأ  
بتهيئة قائد لهم وبأمر غيبي، بالإضافة إلى تفعيل السنن الطبيعية. وها  
هو قد اصطفى موسى ﷺ اصطفاً، وبدأ بدفع السوء عنه كما  
دفع أشكال السوء عن أنبيائه ورسله الذين سبقوا موسى بن عمران  
ﷺ. وهكذا أوحى إلى أم موسى ﷺ، ولكن كيف كان الوحي؟  
لعل هذا الوحي لم يكن مثل الوحي إلى رسول أو نبي، كما

أوحى الله تعالى إلى النحل .

وجاء الوحي الإلهي هذه المرة على الأمر بالرضاعة الأولى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ (ولعلها الضرورية لكل وليد) بعيداً عن أعين مرتزقة فرعون الذي قضى بقتل كل وليد في بني إسرائيل . وهذه كانت انطلاقة الثورة الرسالية ضد الطغيان الفرعوني ، وهكذا تجسدت الإرادة الإلهية بخلاص قوم مستضعفين أشد الاستضعاف، وذلك عبر اصطفاء القائد .

٢- ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّفِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾

بعد أمر الله تعالى لأم موسى أن ترضع وليدها، أوحى إليها بأنها إذا خافت عليه من خطر فرعون وطغيانه فعليها أن تلقيه في اليم دونما خوف أو حزن على مصيره، وأن تعلم بأنه سيكون لوليدها شأن عظيم، وأن الله تعالى يريد أن يصطفيه ويرتضيه لرسالته . فلا مناص من تفويض الأمر إليه، والثقة به . فلا خوف على مستقبل الوليد موسى ، ولا حزن على ماضيه .

٣- ﴿إِنَّا رَأَوُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

حينما ينزع المرء هاجس الخوف والحزن، يستعيض ذلك بإيمان راسخ بإرادة الله القادر على أن يجنبه كل شر . وقد كشف الله تعالى لأم موسى التي كانت قد تسامت في الإيمان واليقين جانباً من الغيب، وأخبرها بأنه عز وجل سيرده إليها، وأنه جاعله لا ريب من المرسلين . وهكذا كان وأضحى المنقذ الذي انتظره بنو إسرائيل طويلاً .

\*\*\*

## بصائر وأحكام

انطلقت مسيرة الخلاص لبني إسرائيل من عذابهم ابتداءً من اصطفاء القائد عبر الوحي لأمه أن ترضعه، وأن تلقيه في اليم إذا خافت عليه، وتفوض أمرها إلى الله دون خوف أو حزن، لأنه يُرد إليها ويجعله الله من المرسلين.



## إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين

﴿فَالنَّقْطَةُ: ءَأَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ ﴿٨﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿فَالنَّقْطَةُ: ءَأَلْ فِرْعَوْنَ﴾

وضعت أم موسى عَلَيْهَا السَّلَامُ وليدها فيما يشبه التابوت وألقته في اليم ليتخذ مجراه كيفما يشاء الله، فجرى به النيل حتى بلغ بعض قصور فرعون، فاعتبره لقيطاً، ولكن هل علموا من هو؟  
كلاً؛ إنما هي مشيئة الرب فوق إرادتهم.

﴿ءَأَلْ فِرْعَوْنَ﴾ لفظة يشار بها إلى الجهة الأسرية والاجتماعية والإدارية.

## ٢- ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾

بلى؛ سيكون لهذا الوليد (الملتقط) شأن عظيم، إنه يكون عدوًّا لآل فرعون. أوليست عقيدة التوحيد التي سيدعو لها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في المجتمع المصري عموماً، وفي الإطار الفرعوني خصوصاً، ستفرق بينهما في الموقف، مما يدفعهم إلى اتخاذه عدوًّا مباشراً يعكفون على القضاء عليه.

وهو عليهم حزن، حيث يصابون بسببه بالكآبة والإحباط.

أولاً: لما أخطؤوا حسب رأيهم فيه من رعايتهم له، ثم أصبح في نهاية المطاف عامل سقوطهم. فهم يحزنون لقناعتهم بأنهم لو لم يلتقطوه على الأقل، ناهيك عن قتله كما قتلوا غيره لكانوا في غنى عن كل ما عانوه منه.

ثانياً: لأنه سوف يكون وسيلة نهاية حكمهم، وهو أكبر حزن لهم.

## ٣- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾

لقد كان فرعون يرغب في أن يكون له ولد، فلم يبلغ مناه، وهو الذي كان يزعم أنه الرب الأعلى؛ وأيُّ رب هذا الذي لا يحقق لنفسه أبسط الأماني. أما هامان فكان بما يمثل من سلطة إدارية، وأما جنودهما بما كانوا يقدمونه من خدمة للسلطة الحاكمة.. قد غلبوا بعد أن دفعهم غرورهم واغترارهم بجبروتهم إلى ارتكاب هذا الخطأ الفظيع بالنسبة لمستقبلهم.

بلى؛ إن المنطق الذي يمنهجه أيُّ إنسان لنفسه لكي يصل إلى الحقائق قد يكون خاطئاً ويوقعه في سلسلة من المشاكل. وهكذا تراه يشك دوماً فيه، ولكنه يعاند ويخادع نفسه بمنظومة من الضلالات،

ولكنه لا محالة يصطدم بواقع مأساوي يعجز عن إنكاره، ولا يستطيع تحمله. فإذا كان لديه شيء من العقل أوقد تبقى له بقية من بصيرة؛ استفاق، ووجب عليه إعادة النظر في منطقته ومنهجية تفكيره.

بلى؛ عليه أن يعيد النظر في السبب الرئيس لكل أخطائه، كما نعرف عن قصة ملكة سبأ حينما رأت عرشها ماثلاً أمام ناظرها عند النبي سليمان عليه السلام عرفت أن نظامها الفكري خاطيء، ولكنها عادت حينما حسبت قصر القوارير لجة، ثم عرفت خطأها فقالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، حيث أعادت النظر في كل عقائدها الخاطئة. والإسلام هنا يعني تحطيم كل ذلك المنهج.

ربنا المتعال يهدينا إلى هذه الحقيقة، فيقول: إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا جميعاً خاطئين، حيث ربّوا عدوهم في بيتهم وحفظوه من بطشهم وقتلهم الذي طال أبناء بني إسرائيل، حتى أن خرج عليهم ليسقط السلطة الفرعونية. وهذا الخطأ لم يكن الوحيد، بل جاء في سلسلة من أمثاله وكلها كانت ناشئة عن خطأ عظيم في منهج تفكيرهم.

ثم إن الله تعالى لم يكتفِ بوصف فرعون وهامان بالخطأ فحسب، وإنما أشار إلى جنودهما - جميع الجنود مهما كانت رتبهم ووظائفهم - بأنهم كانوا خاطئين أيضاً، لأنهم كانوا ضمن السلطة الحاكمة، فهم شركاء في الخطأ، كل حسب دوره، ولا يمكن تنصلهم عن مسؤوليتهم بأنهم جنود. كلاً؛ إن الله سبحانه خلقهم بشراً لا جنوداً للطغاة. وهكذا فهم محاسبون من قبل ربهم وتحيط بهم السنن الإلهية في الدنيا والآخرة كما أسيادهم في يوم القيامة.

(١) سورة النمل، آية: ٤٤.

## بصائر وأحكام

إن المنطق الذي يمنهجه أيُّ إنسان للوصول إلى الحقائق قد يكون خاطئاً فيوقعه في سلسلة لا تنتهي من الأخطاء، ولكنه يظل يعاند ويخادع نفسه حتى يصبطدم بواقع كارثي يعجز عن إنكاره، ولا يستطيع تحمله.



## لا تقتلوه

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾

إن حماس المرأة، وبما كرّس الله تعالى فيها من زخم عاطفي، يفوق ما هو لدى الرجل الذي يتمتع بالمقابل بمزيد من الحكمة. ومن الضروري أن يتكامل هذان العاملان: الحماس والحكمة لضمان حركة الحياة (بالحماس) وتكاملها (بالحكمة). وهكذا فإننا نلاحظ أن دور المرأة في الغالب دور عاطفي يتضمن الترغيب والترهيب. فالمرأة كزوجة هي التي تحرض الرجل على طلب الرزق، كما أنها حينما تكون أمًا تغذي طفلها مع اللبن بالحنان.

وهنا نجد أن ربنا المتعال يبرز هذا الدور. وواضح أن قصص القرآن تنطوي على عبر. وهكذا لا بد أن تعتبر كل امرأة بما جاء في هذه القصة، فتقوم بدورها في منع الشر والتحريض على عمل الخير.

السيدة آسية قامت بهذا الدور العظيم، حينما كانت زوجة فرعون، وكانت تكتم إيمانها اتقاء شر الطاغية. وهذه الثقة هي التي أمرنا بها الرب سبحانه عند عدم القدرة على مواجهة الكفار، فقال سبحانه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ فِي شَيْءٍ اِلَّا اَنْ تَكْتُمُوْا مِنْهُمْ نَفْلًا وَيَحْذَرُكُمْ اللّٰهُ نَفْسَهُ. وَاِلَى اللّٰهِ الْمَصِيْرُ﴾ (١).

## ٢- ﴿فُرْتُ عَيْنِي لِيْ وَلَكَ﴾

يشار هنا إلى أن الله سبحانه وتعالى كان قد خصَّ موسى ﷺ بأن ألقى عليه محبة منه، فكل من نظر إليه انجذب إليه. وهذا الاختصاص كان من وسائل إبلاغ الرسالة، كما هو الشأن في باقي الأنبياء والرسل، لا سيما نبينا الأكرم ﷺ، حيث ألبسه الله تبارك وتعالى الخلق الطيب، والأثر الطيب، والمظهر الطيب، والجمال والهيبة، حتى إن أحداً ما كان ليواجه النبي الأكرم إلا ويرى فيه هذه الخصائص والخصال ﷺ.

وهكذا استثمرت السيدة آسية هذه الخصيصة في شخصية موسى ﷺ للحفاظ عليه. وبالرغم من أن فرعون كانت فيه القسوة، إلا أنها راحت تثير انتباه فرعون إلى ما في موسى ﷺ من خصال تدعو إلى إزالة الغضب والقسوة.. وهي إنما خاطبت فرعون بذلك لتحاشي سطوته التي قد يفعلها في كل حين.

(١) سورة آل عمران، آية: ٢٨.

٣- ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾

بيدو أن فرعون لم يكن الوحيد في ذلك المجلس الذي شهد المجيء بموسى عليه السلام بعد أن تم التقاطه، وأنهم جميعاً هموا بقتله، ولكن لماذا؟ رضيع يحمله الماء، وفي ملامحه كل البراءة، لماذا يُقتل؟ هل بلغت القسوة عند آل فرعون درجة أنهم كانوا يقتلون كل طفل إلا الذي يتتمي إليهم، أم ماذا؟

وهنا نهضت آسية بدورها وطالبتهم جميعاً وهي واحدة ألا يقتلوه. وقد نستفيد من السياق أن القوم كانوا سوف يقومون بهذه الجريمة دون انتظار لأوامر قائدهم فرعون. ثم دعمت كلمتها بأمرين فقالت:

٤- ﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾

في كلمتها إيهام، ففيها وجهان: ظاهر وباطن. أما الظاهر فإن الصبي اليوم يصبح غلاماً غداً ويتحمل جزءاً من أعباء الأسرة، فلماذا يُقتل؟ وأما الباطن فإنها لم تقل: عسى أن ينفعكم، إنما قالت: ﴿عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا﴾. وإنما عنت بذلك نفسها والمؤمنين حيث كان في تواجد موسى عليه السلام طيلة سنين في قصر فرعون المزيد من النفع للمستضعفين. أما الجلادون فإنما يتلقون الضرر من حيث لا يشعرون.

ثم إنها قالت بعد ذلك ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ في إطار تدرجها في إقناع فرعون والجلادين مرتزفته لئلا يقتلوه. وهكذا أرادت إلفات نظرهم إلى أنه قد ينفعهم على الأقل، بل قد يصبح متميزاً حتى يصلح أن يكون ولداً للأسرة الحاكمة.

ونستفيد من هذه الكلمة بصيرتين:

الأولى: على الداعية أن يذكر مخاطبه بحاجاته الملحة، لعله

يخضع لكلامه.

الثانية: إن علينا أن نذكرُ أبدأً بِحُكْمِ الأحكام ولا نكتفي بذكرها. فالقتل خصوصاً قتل الأطفال من أشد المحرمات، ولكنه ليس مجرداً عن الحكمة، علينا التذكير بها لكي يتقبل الناس الحكم بكل سهولة.

ولقد نجحت أسية في محاولتها هذه، حتى راح الناس يسمون موسى بابن فرعون حينما كان شاباً يافعاً. وهكذا هياً الله عز وجل الأسباب لاستمرار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في الحياة، كما هياً سبحانه الأسباب للنبي يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لكي يعيش في بيت عزيز مصر قبل أن يمكّنه في الأرض.

٥- ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

إذا شاء الرب سبحانه أن يقع شيء، فإنه قد يسلب من الناس ما آتاهم من قدرة التمييز حتى يعودوا أقل من سائر الأحياء، فإذا هم لا يشعرون. وهكذا كان آل فرعون في تلك اللحظة، حيث تراهم لم يدركوا أبسط الحقائق، فإذا بهم يربون في بيوتهم عدوهم!

## بصائر وأحكام

إن ربنا المتعال يبرز دور المرأة في القرآن الكريم، وإنما يبرزه لكي تعتبر كل امرأة بها فتقوم بدورها في الحياة، فلا تنطوي على نفسها، وتبرّر تقاعسها بما لا يغنيها شيئاً.



## وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠﴾

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ يَعْنِي كَادَتْ أَنْ تُخْبِرَ بِخَبْرِهِ أَوْ تَمُوتَ، ثُمَّ صَبَطَتْ نَفْسَهَا، فَكَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٣٦.

## تفصيل القول

١- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ نَارًا﴾

أم موسى، كغيرها من الأمهات، استبد بها القلق على وليدها، رغم أمر الوحي الإلهي لها بالقاء وليدها في اليم، ورغم الوعد الإلهي لها برده إليها، إلا أنها ما فتئت تفكر فيه حتى أصبح فؤادها فارغاً من التفكير في أي شيء إلا سلامة موسى عليه السلام، نظراً إلى ما كانت تعرف عن طغيان فرعون وقومه، على أنها كانت تتوقع من ابنها شأنًا عظيمًا هو أن يدمر حضارة مادية عتيدة لعلها كانت متجذرة في التاريخ لقرون بعيدة، ولكن حيث هو يعيش تحت مظلة السلطة الفرعونية فإن ذلك مما يستدعي القلق ومن ثم البحث عن سبل استنقاذه من هذه اليد الظالمة. وهكذا استولت على أم موسى أمواج من الزخم العاطفي إلى درجة أن عبر الله تعالى عنه بقوله:

١- ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾

أي إنها شارفت على البوح بحقيقة كون الوليد المترعرع في قصر فرعون هو ابنها، وأنه من ذرية بني إسرائيل، ولكن الله دفعها إلى التوكل عليه بعد أن ربط على قلبها وجعلها تنهج منهج التقية كغيرها من المؤمنين بالله الذين كانوا يعيشون مع الأقباط أو حتى في القصر الفرعوني.. ومعلوم أن اتخاذ التقية منهجاً يتطلب الكثير من الصبر والحلم والمران في التصرف.

أقول: هذا السياق القرآني الذي تستعرضه سورة القصص المباركة يتضمن التأكيد على دور الأسرة الفاضلة في صياغة

الشخصية الفاضلة التي يراد أن تصبح القائد الأعلى للنهضة في سبيل الله تعالى ولمواجهة الطغاة وما يعيشون في الأرض من فساد عريض.

## بصائر وأحكام

- ١ - إن اتخاذ التقية منهجاً يتطلب الكثير من الصبر والحلم والمران في التصرف، ولا يحصل ذلك إلا بالتوكل على الله سبحانه.
- ٢ - إن دور الأسرة في بناء شخصية القيادة الرسالية دور حاسم لما يناط بها من مهام عظيمة في مواجهة الطغاة وفسادهم في الأرض.



## فبصرت به عن جنب

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ قُصَيْيَهٗ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١١).

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ ﴾ أَي لِأُخْتِ مُوسَى ﴿ قُصَيْيَهٗ ﴾ أَي أَتَبِعِيهِ، فَجَاءَتْ أُخْتُهُ إِلَيْهِ ﴿ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ ﴾ أَي عَنْ بَعْدٍ ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾» (١).

### تفصيل القول

١- ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتَيْهِ قُصَيْيَهٗ ﴾

قالت أم موسى لابنتها أخت موسى أن تقصّ أثره لكي تتبع خبره.

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٣٦.

٢- ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ﴾

أطاعت هذه الأخت المؤمنة أمر أمها دونما ترددٍ كما يبدو من صريح الآية أو رعبٍ من جنود فرعون، ولكنها اتخذت سبيل الحيلة في تتبع التابوت الذي كان يحمل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فراحت ترقبه وتراقب مساره حتى بصرت به يُحمل إلى داخل القصر.

٣- ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

لطالما ورد الحديث عن فرعون وهامان وجنودهما بالذم والتوبيخ والتأكيد بعدم شعورهم، فيما الحديث عن المؤمنين بالمدح والثناء خصوصاً في التصرف الذكي. وهكذا فإن الله سبحانه حينما يشاء تحقيق أمر هام فإنه قد يعمق نقاط الضعف في أصحاب الشر، فتراهم يزيدون من أخطائهم، وتضطرب مشاعرهم، وتتضاعف أخطاؤهم من حيث لا يشعرون. فحتى أبسط الحقائق يغفلون عنها، وأظهر الدلائل لا يستفيدون منها؛ فكيف لم يشعروا بتتبع أمه للتابوت، وكيف لم يعرفوا أنه سيكون هذا الرضيع أداة دمارهم بإذن الله تعالى، وأنهم سوف يؤخذون على حين غرة؟ وما ضياع الشعور هذا الذي أصاب الفراعنة إلا لأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، إذ إنهم اغتروا بقوتهم فأصبحوا محجوبين عن الحقائق.

بصائر وأحكام

إن من كيد الله لأعدائه، أنه يعمق نقاط الضعف فيهم، حتى يجعلهم يزيدون أخطاءهم وتتبدل مشاعرهم، فتراهم لا ينتبهون لما يجري حولهم.



## وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ  
بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (١٣)

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾

لأن الله تعالى كان قد وعد أم موسى عليها السلام أن يرده إليها، فقد هياً للرد أسبابه، ومن ذلك أنه حرّم عليه أن يرتضع من امرأة أخرى غير أمه ليُعاد إليها بعد أن يضطر آل فرعون إلى ذلك.

ولأن الله تبارك وتعالى قد اصطفى من عالم الذر والميثاق رجالاً لم يزل يعاهدهم بالتربية والتزكية ليكونوا قدوات لأهل الأرض، في ذلك العالم الذي فيه خاطب ربنا عباده وهم على هيئة

الذر قائلاً: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾<sup>(١)</sup>. ولعل هذا السؤال وذلك الجواب كان جزءاً من سنة الأمانة التي عجزت السماوات والجبال والأرض عن حملها وحملها الإنسان.

ويبدو أن جواب العباد لم يكن دفعة واحدة من جميع الخلق، وإنما تدرج حسب مراتبهم، وكان أول من لبى هو رسول الله محمد ﷺ، وهو الذي قدر الله تبارك وتعالى له أن يكون أول النبيين ميثاقاً، وقد ابتعث ﷺ في الختام، ليتجسد به التكامل في شرائع الرب تعالى.

ثم تلاه ﷺ في التلبية لله رب العالمين أهل البيت ﷺ، ثم تدرجت مراتب الملبين بعدهم، فكان أولو العزم من الأنبياء ﷺ هم السابقون، ثم من بعدهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وهكذا اختار الله تعالى لهؤلاء السابقين أصلاً طاهرة وأرحاماً مطهرة، فلم تندسهم الجاهلية بأنجاسها. ومن هنا قال الله سبحانه عن نبيه الأكرم ﷺ: ﴿وَقَلْبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾<sup>(٢)</sup>. فهو كان قلب بين صلبٍ طاهرٍ ورجمٍ مطهرٍ.

كذلك حرّم الله تعالى المراضع على النبي موسى بن عمران ﷺ، لأن الرضاعة ذات تأثير شديد في صياغة شخصية ابن آدم.

ولكن متى كان هذا التحريم؟ يجب تعالى بأن التحريم هذا كان ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي حينما أراد الله تبارك وتعالى لموسى أن يكون

(١) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

(٢) سورة الشعراء، آية: ٢١٩.

رسولاً نبياً ومن أولي العزم وقائداً رسالياً معداً لإحداث تغيير جذري في الناس، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتكوّن بدن مثل هذا (الإنسان) من مادة غير طاهرة.

بلى؛ حينما قال ربنا سبحانه في الآية السادسة من هذه السورة المباركة: ﴿وَمَكَّنْ لَهُم فِي الْأَرْضِ وَرَبِّي فِرْعَوْنُ وَهَمَّ نَحْوَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ تجلّت تلك الإرادة الإلهية في قوله تعالى هنا: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾، ثم في: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾. إذن؛ فالرضاع لا بد أن يكون من الأم التي اختارها سبحانه لتكون خير وعاءٍ لهذا النبي الأعظم، على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام.

لقد أراد الله أن يصطنع موسى لنفسه، فحرّم عليه المراضع بعد أن ألقى محبته في قلب من يراه. وكانت هاتان المعجزتان كافيتين لمن كان له قلب، ليفهم أن هذا ليس صبيّاً كسائر الصبيان، ناهيك عن حفظه ورعايته وهو بين الشجر والماء الذي لم يغرقه.

٢- ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُورٌ﴾

أخت موسى قالت لآل فرعون بعد أن اقتفت أثره ووصلت إلى قصر الظلم والجور، قالت بقلب ملؤه الإيمان والحرص على مصير أخيها النبي: هل أدلكم على أهل بيت؛ بمعنى أن ثمة (أهلاً وبيتاً) قدّر لهما أن يكونا الكفيلين والراعيين لهذا النبي العظيم، ولم تقل على أم أو على مرضعة. ثم بيّن صفة هامة في المرضعة المختارة، أنها ناصحة للصبي.

\*\*\*

## بصائر وأحكام

- ١- لقد اختار الله تعالى للنبي موسى عليه السلام أصلاً بآ طاهرة وأرحاماً مطهرة، فلم تدنّسه الجاهلية الدنيوية بأنجاسها.
- ٢- لقد أراد الله أن يصطنع موسى لنفسه، فحرّم عليه الأمراض وأعادته إلى رحاب أمه، حيث الطهر والنصح والحنان.



## ان وعد الله حق

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتَمِّهِ كَيْ نَفَرَ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَعَلَّمَ  
أَبْنَوْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ .

\*\*\*

### تفصيل القول

١ - ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتَمِّهِ﴾

رغم أن الدنيا بمثابة سجن للمؤمن وجنة للكافر، إلا أن المؤمن يعيش في الدنيا أيضاً في بحبوحة من النعم الإلهية، وما يصيبه في الدنيا من فتن وبلاء يعود عليه أيضاً بالنعمة، سواء المادية منها والمعنوية.

ألا ترى كيف أن أم موسى عليها السلام، التي وثقت بربها حين أوحى إليها بأن تفترق عن وليدها الرضيع وأن تلقيه في اليم، كيف ربط الله تعالى على قلبها، ثم أعاد إليها وليدها سالماً معززاً مأموناً من شر آل فرعون.

٢- ﴿كَيْ تَفَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾

١- قرة العين تأتي بعد انتهاء الخوف، فكأن العين تدمع ثم تكفكف دمعها فتبرد بعد أن كانت دافئة بالدمع. (والقرّ يعني البرد).

٢- بما أنه لا ينبغي للمؤمن أن ينهزم أمام المصائب لأنها بعين الله وفي سبيل الله سبحانه، الذي لا يضيع عنده عمل عامل من ذكر وأنتى، فإنه لا يحزن على الماضي كما لا يخاف مما يأتي. ثم إن رد موسى عليه السلام إلى أمه لم تكن حالة طبيعية، وإنما تجلت فيها الكرامة الربانية. ولها جانب آخر ذات أهمية، وهي:

٣- ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾

الأهم من تينك نعمتين هي أن الله تعالى أبلغها مقاماً رفيعاً في الإيمان، حيث هيأ لها مقام العلم بأنّ وعد الله حق. لقد أراها رأي العين كيف يحقق وعده لعباده، حينما رد وليدها إليها، وأمن الوليد من المخاطر التي كانت تهدد أبناء بني إسرائيل، حيث كانوا يُذبحون جهازاً نهاراً. وهكذا ادّخر الله سبحانه هذا النبي العظيم ليوم قُدّر لمستضعفي بني إسرائيل بالتمكين في الأرض.

٣- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

مع أن الله تبارك وتعالى لا تتوقف نعمه على بني البشر، مما ينبغي لهم عرفان حرمتها ومن ثم الإيمان بأن الله صادق الوعد، بل إنه مصدر الحق، مع كل ذلك نجد أكثر الناس لا يعون هذه الحقيقة الربانية، بل هم يكفرون بها بجهلهم وابتعادهم عن منهج الهدى الذي تُذكّر به الرسالات، ويتجلّى في كلمات الدعاة إليها من أنبياء وأئمة. فأكثر الناس يطلبون الهدى من غير الله، ومن غير أبواب العلم التي فتحها لعباده، فيسقطون في وديان الجهل والجهالة.



## بصائر وأحكام

لا تتوقف نعم الله وآلاؤه وبركاته على البشر، وكان ينبغي أن يدعوهم ذلك إلى عرفان المنعم، وبالتالي إلى الإيمان به وأنه صادق الوعد.



## وكذلك نجزي المحسنين

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ ءَأَيْنِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي  
الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا  
بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْتَوَىٰ ءَأَيْنِنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ قال: «أَشُدُّهُ: ثَمَانِ عَشَرَ سَنَةً،  
وَأَسْتَوَىٰ: إلتَحَىٰ»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾

أي: بلغ مبلغ الرجال.

(١) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص ٢٢٦.

## ٢- ﴿وَأَسْتَوَىٰ﴾

لعل معناه أنه بلغ رُشده. ويمكن تفسير الاستواء بالبلوغ النفسي والعقلي وما يحتاجه الإنسان ليصل إلى مستوى النبوة وحمل الرسالة، لا سيما وأنه ينسجم مع النص القرآني التالي:

## ٣- ﴿أَيُّنَّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾

هذه الآية تثير فينا سؤالاً: هل أن الرسائل الإلهية تتصل بحياة الأنبياء في الدنيا، وأن ما يقومون به من أفعال هي التي توفر لهم فرصة الرسالة، أم أن موضع الرسائل الإلهية قد قُدِّر في عالم آخر (عالم الميثاق) من دون أن تكون هناك أية علاقة بينها وبين سلوك الرسل في الدنيا؟  
هناك احتمالان:

الأول: أنه لا علاقة بين فعل النبي وبين رسالته، لأننا نعلم أن الله يصطفي رسله ولما يُخلقوا في هذه الدنيا بعد.

الثاني: هو أن الله يختار الأنبياء وفق ما يرى منهم في الدنيا من كفاءات نظرية وسلوكية مناسبة لمقام النبوة.

وقد نجد للمذهبين معاً شواهد في الكتاب والسنة، مما يدعونا إلى الجمع بينهما بأن نقول: إن الله سبحانه قد قُدِّر النبوة لرسله في عالم سابق، ولكنه في الوقت ذاته قد امتحنهم في دار الدنيا للسمو بهم أكثر فأكثر، أو ليعرفهم الناس، أو ليتخذوا منهم قدوات، أو لحكمة أخرى.

## ٤- ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

وهكذا نجد أن الله تعالى بعد بيان تشريف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ

بالحكم والعلم يقول: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. ولكنه متى ظهر من النبي موسى عليه السلام الإحسان؟ وما هو المثال الواضح لما قام به من فعل الإحسان؟

قال البعض: ظهر ذلك منه منذ الطفولة المثيرة، وكأنه اعتمد في ذلك على أنه كان محسناً قبل البلوغ، حتى إنه بعده أوتي العلم والحكم، ولكن لا نملك دليلاً على ذلك.

## بصائر

مما سبق نستلهم البصائر التالية:

١- آيات عديدة في هذه السورة وغيرها تشير إلى أن الله تعالى قد حمّل النبي موسى عليه السلام الرسالة عندما رجع من مدين واقترب من الشجرة. إذ قد يؤتي ربنا عبداً مصطفى من عباده الحكم والعلم، ثم بعد فترة يحمله مسؤولية الرسالة حسب حكمته البالغة.

٢- النبوة ليست تطوراً طبيعياً يحظى بها الإنسان بفعل ما يختمر في ذهنه من أفكار أو تحمله نفسه من الرغبة في الإصلاح.. كلاً؛ إنما هي اصطفاء رباني منوط بعلم الله وحكمته وإرادته، فيؤتيها من يشاء. وهكذا الرسالة فإنها ليست مهمة ذاتية مرتبطة بالشخص، وإنما هي حاجة مرتبطة بالمجتمع. والفرق كبير بين الأمرين؛ أي بين أن تكون النبوة ظاهرة نفسية أو عقلية عائدة إلى الفرد نفسه، وبين ما يؤكد القرآن الكريم بأنها حقيقة متصلة بالوحي (وبالجعل من عند الرب سبحانه).

٣- ويبقى سؤال: ما هي حقيقة هذا الحكم الذي آتاه الله

تبارك وتعالى موسى عليه السلام؟ هل هو النبوة، أو يتمثل في معرفة الأحكام الشرعية؟ كلا الأمرين صحيحان.

٤- إن الحاجة الاجتماعية لبعثة الأنبياء عليهم السلام هي التي تحدد مواقيتها. فمثلاً لقد روي عن نبينا المصطفى محمد عليه السلام قوله الشريف: «كُنْتُ نَبِيًّا وَأَدَمُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ»<sup>(١)</sup>.

ولكن لم يؤذن بإعلان رسالته إلا حين بلوغه الأربعين من عمره الشريف.

وهكذا النبي موسى عليه السلام أوتي الحكم والعلم بعد بلوغه أشده واستوائه مباشرة أو بصورة غير مباشرة، ولكنه أعلن رسالته بعد عودته من المدائن.

### بصائر وأحكام

١- إن النبوة ليست تطوراً طبيعياً للمرء بفعل ما تختمر لديه من أفكار أو تتكامل عنده من الرغبة في الإصلاح، وإنما هي اصطفاء رباني منوط بعلم الله وحكمته، فيؤتي الحكم من يشاء ويمنعه عمن يشاء.

٢- وإن بعثة النبي رسولاً إلى قومه قد تتأخر عن نبوته لحكمة بالغة، لأن للدعوة شروطها الموضوعية.

(١) عوالي اللآلي، ابن جمهور الإحسائي، ج ٤، ص ١٢١.



## هذا من عمل الشيطان

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِهُ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ .



## من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام للمأمون حينما سأله عن قول الله عز وجل : «﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾﴾ :  
إِنَّ مُوسَى دَخَلَ مَدِينَةً مِنْ مَدَائِنِ فِرْعَوْنَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا،  
وَذَلِكَ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ  
وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فَقَضَى مُوسَى  
عَلَى الْعَدُوِّ، وَبِحُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ ﴿فَوَكَرَهُ﴾ فَمَاتَ ﴿قَالَ هَذَا مِنْ  
عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يَعْنِي الْأَقْتِتَالَ الَّذِي كَانَ وَقَعَ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، لَا مَا فَعَلَهُ

مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَتْلِهِ. ﴿إِنَّهُ﴾ يَعْنِي الشَّيْطَانَ ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.

## تفصيل القول

١ - ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾

هل كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ خارج المدينة فدخلها على حين غفلة، أم أنه كان في القصر الفرعوني فنزل منه وراح يمشي في طرقات المدينة؟

يبدو أنه كان خارج المدينة، وغفلة أهلها تعبير عن كونهم كانوا في سبات عند الظهيرة أو بين المغرب والعشاء، كما في رواية ذكرناها آنفاً. فدخل المدينة، ولعل دخوله كان بحثاً عن مظلوم ينتصر له، نظراً لصعوبة وصول المظلومين إليه وهو في القصر، مضافاً إلى الحرج الحاصل لدى اختلاطه بالناس عند اكتظاظهم في الطرقات والأسواق مثلاً، باعتباره من الشخصيات المعروفة في مصر آنذاك.

ودخول موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للمدينة كما يبدو كان من منطلق إثارة الإحساس بالأمل لدى الناس، وإثارة شعورهم نحو تحصيل الحق والعدل والعودة إلى الله تعالى.. هذه الأمور التي يقابلها الكفر والظلم والفسق.

٢ - ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾

أحد الرجلين كان من الأقباط المحسوبين على السلطة الفرعونية الحاكمة، والآخر كان من بني إسرائيل المستعبدين. ولعل

---

(١) عيون أخبار الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٧٦.

الرجل القبطي كان يريد تسخير الرجل الإسرائيلي ليحمل له حملاً ثقيلًا بالمجان، ولما كانت الطرقات شبه خالية ﴿غَفَلَةً﴾ من أزام السلطة ومن الناس عموماً، فقد قرر الإسرائيلي أن يتمرد على عادة السُّخرة والقاضية بوجوب طاعة بني إسرائيل للأقباط. فلما رأى الإسرائيلي انفراد القبطي، راح يعترض أشد الاعتراض عليه، فاقتتلا بعد أن دبت في المظلوم روح المقاومة للظلم الفرعوني الصارخ.

٣- ﴿هَذَا مِنْ شِيعِنِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾

يشير هذا النص القرآني إلى أن موسى ﷺ كان قد أسس لنبوته ورسالته كياناً اجتماعياً وربما كان أوسع نطاقاً من الانتماء القومي، حيث نجد أن القرآن يقول: ﴿مِنْ شِيعِنِهِ﴾. والتشيع لشخص يتضمن معنى الانتماء والاتباع، بل كان موسى ﷺ قد أصبح معروفاً عند المظلومين كشخصية طالما انتظره القوم لكي يخلصهم من ظلم فرعون، ولذلك يقول النص القرآني الشريف:

٤- ﴿فَأَسَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعِنِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾

يبدو أن هذه الاستغاثة كانت استغاثة الشيعي التابع من قائده. وهكذا تراه يتطلع إلى موسى ﷺ، الذي رأى بدوره في تلك الغفلة فرصة لإغاثة الملهوف.

٥- ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾

لقد صار لموسى ﷺ أشباع، وقد بدأت حركته بالانتشار، ولكن ربما لم تكن الظروف الاجتماعية والسياسية مؤاتية للإعلان عنها. ولذلك تجد موسى ﷺ قد غضب على الرجلين كلٌّ من زاويته؛ فالغضب على القبطي باعتباره ظالماً مجرماً بحق من هو

أضعف منه، وعلى الإسرائيلي باعتباره قد كسر حاجز التقية التي كان لابد أن يلتزم بها حتى يأذن الله تعالى له بإشهار رسالته السماوية في المجتمع المصري.

وهكذا توجه موسى عليه السلام إلى القبطي فوكزه أي: ضربه ففضى عليه؛ أي ضربه ضربة مباشرة أدت إلى موته، لأنه كان ظالماً من جهة، ولأنه قد كشف هوية موسى عليه السلام باعتباره الجهة التي يُستغاث بها.

يُذكر أن النبي موسى عليه السلام كان قد أجابه ربه المتعال حيث طلب إليه أن يشرح صدره ويسر له أمره؛ أي إنه صار لئن الخلق، على عكس ما يوصف في بعض النصوص التاريخية غير الصحيحة بأنه كان سريع الغضب وأنه كان ذا شخصية فظة.

## ٦ - ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾

بعد أن قتل موسى عليه السلام الرجل القبطي الظالم، ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾. فما هو عمل الشيطان حتى يتناسب هذا التعقيب في السياق القرآني؟

بلى؛ إن الشيطان هو سبب الأزمات. فإن هذا القبطي السيئ الحظ قد أطاع إبليس حينما أراد تسخير الإسرائيلي الذي كان من شيعة موسى عليه السلام.

ولعل حكمة إشارة الذكر إلى هذا الأمر تتمثل في أن الأصل في الدين هو السلام والأمن.. وأما وقوع الصراع المرير المؤدي إلى القتل وإن كان القتل شرعياً فمردّه إلى عمل الشيطان الذي يستجيب له البعض فيعملون عملاً يأمرهم به إبليس لعنه الله. أما ردّ الجور

والظلم والفتنة، فأمر ليس من عمل الشيطان، وإنما هو ممارسة واجب شرعي أكيد.

٧- ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾

ليس الإنسان عدوًّا للإنسان في الأصل، إنما الشيطان عدو لبني آدم. ولو أن الإنسان هجر الشيطان لانتفت العداوة وإلى حد كبير جدًّا بين بني آدم، وإنما يحارب المؤمن الكافر، لا لأجل ذاتية فيه، وإنما يحاربه لأنه صار نصيراً للشيطان الذي هو العدو المبين للآخرين معاً، مما يشير إلى أن الدين الإلهي أبعد ما يكون عن العنصرية وعن التحزب السياسي.

إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى ابن آدم سلاحاً ماضياً للغاية؛ أشد قوة من محاولات الشيطان في إضلاله، ألا وهو الإرادة، وعلى الإنسان أن يتحسس بهذه النعمة الربانية، ويتحسس مدى كرامته عند الله تعالى، لكي يعرف أنه لا يصلح أن يطيع ذلك الكائن المطرود من الكرامة الإلهية.

## بصائر وأحكام

إن الشيطان هو عدو الإنسان الأول، ولولاه لما كانت عداوة بين أبناء آدم، وإن الله سبحانه قد أعطى ابن آدم سلاحاً ماضياً للغاية؛ أشد قوة من كيد مكر الشيطان، ألا وهو الإرادة والإحساس بالكرامة.



## رُبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ  
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٦)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام حينما سأله المأمون:  
«فَمَا مَعْنَى قَوْلِ مُوسَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾؟ قَالَ: يَقُولُ  
إِنِّي وَضَعْتُ نَفْسِي غَيْرَ مَوْضِعِهَا بِدُخُولِي هَذِهِ الْمَدِينَةَ ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾  
أَيَّ اسْتَرْنِي مِنْ أَعْدَائِكَ، لِئَلَّا يَظْفَرُوا بِي فَيَقْتُلُونِي. ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ  
هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾» (١).

\*\*\*

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٧٧

## تفصيل القول

١ - ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾

لا ريب أن دعاء الأنبياء ﷺ يتفاوت من زاوية انطلاقه مع دعاء غيرهم. فالأنبياء معصومون عن الخطأ، واستعمالهم للمفردات اللغوية ليست بالمعاني ذاتها عند الآخرين (غير المعصومين)، لأن مقامهم عند الله تبارك وتعالى مقام كريم. إنهم القدوات الصالحة للبشرية جميعاً، مما يستدعي ضرورة حمل الخطاب الذي توجه في الكتاب إليهم حسبما يليق بمقامهم.

فالرجل البسيط حينما يخاطب ربه المتعال ويعترف بأنه قد ظلم نفسه، فإنما لأنه قد ارتكب معصية حقاً. أما النبي أو الإمام فله في هذا الاستعمال شأن آخر، كطلب الدرجات الأسمى، أو لكونهم يحملون ذلك على نوع خشوع لله سبحانه، أو لكي يذكروا الناس بضرورة الشعور بالتقصير تجاه تطبيق أوامر الله سبحانه، وتجاه شكر نعمه عليهم بما لا تحصى عدداً.

٢ - ﴿ فَأَغْفِرْ لِي فَعَفَّرَ لَهُ ﴾

هنا ثم سؤال مهم في البين، وهو: لماذا يأمر ربنا سبحانه عند الفتح بالاستغفار، كما ورد في سورة النصر المباركة، حيث قال تعالى: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ ﴾ ٢ فسبح بحمد ربك وأستغفره إنه كان تواباً ﴿ ١ ﴾.

(١) سورة النصر، آية: ١-٣.

وكما نقرأ في سورة الفتح الكريمة، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. (١)

وهكذا نجد كيف أن النبي موسى عليه السلام حينما انتصر على عدوه، استغفر ربه عز وجل.

بلى؛ إن الإنسان قد ينساق مع الغرور أو الكبر أو الطغيان عند النصر. وبما أن الله تعالى هو الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، فقد بعث الأنبياء ليعلموه كيف يكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء عند مظان الغرور. ألا ترى كيف ينهى ربنا عن الطغيان عند الاستقامة، ويقول: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (٢)؟

ذلك أن المؤمن قد يصاب بالطغيان بعدما يقاوم شهوات ذاته، فيستطيل على الناس بإيمانه، فنهاه الرب.

وقد أثبتت حوادث التاريخ أن كثيراً ممن كانوا يجاهدون الطغيان قد أصبحوا طغاة، حيث أصيبوا بالفساد واستهواهم زخرف الدنيا وأخذتهم العزة بالإثم، لأنهم انساقوا مع النصر المادي على عدوهم، ونسوا أن الغاية الأسمى من الجهاد إنما هي اكتساب مرضاة الله تعالى ونيل القرب منه.

ومن هنا نجد بصائر القرآن وما فيها من قصص الأنبياء الذين هم القدوات الصالحة للأمم، تحذرننا من العاقبة السوءى وتذكرننا بضرورة الاستغفار من الذنوب السابقة عند نيل كل نصر.

---

(١) سورة الفتح، آية: ١-٢.

(٢) سورة هود، آية: ١١٢.

وهكذا كان طلب النبي موسى ﷺ المغفرة من ربه عند انتصاره على القبطي ليكون قدوة لغيره من المؤمنين المكلفين باتباعه وبالاستقامة على طريقته، وعدم الاغترار بما يتحقق لهم من نصر.

ولعل للاستغفار عند النصر حكمة بالغة أخرى تتمثل في عدم الغفلة عن الثغرات التي ترافق عادة كل نصر، وعن الخطايا والأخطاء التي كانت في طريقه. ولعل الهفوة في قصة النبي موسى ﷺ كانت تتمثل في شجار الإسرائيلي مع القبطي، والذي لم يكن مناسباً لعدم الإعلان عن الثورة في ذلك الوقت. ومن هنا كان على المؤمنين دائماً دراسة أخطائهم، حتى عند انتصارهم على أعدائهم في معركة، لكيلا يخسروا معارك قادمة.

٣- ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

فأجاب الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ ما سأله، فرفع درجته وأكرمه حق الإكرام.

### بصائر وأحكام

قد ينساق البشر إلى الغرور والكبر والطغيان عند النصر، ولذلك كان عليه أن يتحلى بالاستغفار لكي يكبح جماح نفسه الأمارة بالسوء، ويتجنب الجوانب السلبية التي ترافق عادة مع كل إنتصار.

والاستغفار ينفع في تحديد نقاط الضعف عند المؤمنين بالرغم من انتصارهم، لكي يصلحوها فلا يخسروا معارك قادمة.



## فلن أكون ظهيراً للمجرمين

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٧)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث: ﴿ قَالَ ﴾ ﴿ قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ ﴿ مِنْ الْقُوَّةِ، حَتَّى قَتَلْتُ رَجُلًا بَوْكَزَةً ﴾ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾، بَلْ أَجَاهِدُ فِي سَبِيلِكَ بِهَذِهِ الْقُوَّةِ حَتَّى تَرْضَى ﴾ (١).

### تفصيل القول

ترى ما السبب في ألا تكون هناك منطقة حياد تفصل بين الحق والباطل.. بين أن يكون المرء مدافعاً عن الحق وخصيماً للظالم وبين

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٧٧.

أن يكون نصيراً له؟ .. وكما يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «مَنْ لَا يَنْفَعُهُ الْحَقُّ يَضُرُّهُ الْبَاطِلُ، وَمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ بِهِ الْهُدَى يَجْرُبُهُ الضَّلَالُ إِلَى الرَّدَى»<sup>(١)</sup>.

بلى؛ إن عدم الانتفاع بالحق يعادله التضرر بالباطل، إنها سنة إلهية، ولكن لماذا؟.

يبدو أن العلة في هذه المعادلة؛ أن الحرية التي منحها الله تعالى لابن آدم تحمّله مسؤولية كبرى في حسن الاختيار، ولذلك أصبحت واجباً أكثر منها حقاً. ومن هنا فليس في استطاع ابن آدم أن يتنازل عن حرّيته وكرامته وعزّته.

إن هذه الحرية منحة ربانية ولا يمكن لعبد الله أن يتخلّى عنها، بل يجب عليه أن يترجمها إلى عقيدة في القلب، وثقافة في الفكر، وسلوك في العمل، وموقف في المجتمع.. فيدافع عن نفسه في مواجهة كل ظالم أتى كان، بل الواجب عليه أن يدافع عن كل مظلوم. إن النبي موسى عليه السلام ذكرنا من خلال كلمته أن الله عز وجل قد أكرمه بكرامة الهداية والنبوة والعصمة، فكان لا بد له من أن يشكر نعمه سبحانه بالدفاع عن المظلوم ومواجهة الظالمين.

وهكذا علمنا عليه السلام أن الشكر ليس مجرد ألفاظ يرددها الإنسان، إنما هو مشروع متكامل لحياة حافلة بالكدح من أجل الحق وإلى لقاء الله بارئته المتعال.

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى مقاطعة الظالمين لكيلا يستبد الطغاة بقيادة المجتمع، ذلك أن الطاغوت لا يولد طاغوتاً، وإنما

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٢٨.

الذين من حوله يصنعون منه كذلك، وذلك بالسكوت عن تصرفاته، بل الركون إليه.

لقد تعهّد النبي موسى ﷺ إلى ربه ألا يصير أداة لحكم الظالم، بالرغم من أنه كان قد ترعرع في بيت الظلم والطغيان.. مما يؤكد لنا أن الإنسان كائن حرٌّ ومختار، فإذا ما عرف مقام الحرية وكرامة الاختيار تنزلت عليه البركة والدعم من الله سبحانه وتعالى، ولم يتأثر بالبيئة الفاسدة التي أحاطت به.

ويبدو أن النبي موسى ﷺ كان قد قرر سلفاً أن يخرج من بيت فرعون ويبدأ حركته الرسالية. والدليل على ذلك أنه دخل المدينة على حين غفلة من أهلها؛ ولو أنه كان قد غادر قصر فرعون بصورة طبيعية، لما دخلها كذلك.

## بصائر وأحكام

١ - من لم ينتفع بالحق أضره الباطل. إنها بصيرة إيمانية يجب أن يستوعبها الجميع.

٢ - الحرية منحة ربانية ولا يجوز للإنسان أن يتخلّى عنها، بل عليه أن يترجمها إلى عقيدة في القلب، وثقافة في الفكر، وسلوك في العمل، وموقف في المجتمع.. فيدافع عن نفسه لكيلا تستلب حرّيته، بل ويدافع عن كل مظلوم ومستضعف.



## فأصبح في المدينة خائفاً يترقب

﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ  
يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٨)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام في حديث:  
﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ مُوسَى عليه السلام ﴿ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ،  
بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ﴾ عَلَى آخَرَ ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴾ قَاتَلْتَ  
رَجُلًا بِالْأَمْسِ وَتُقَاتِلُ هَذَا الْيَوْمَ لِأُودِبْتِكَ، وَأَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِهِ<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١ - ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾

لا ريب في أن ابتلاءات الأنبياء والأوصياء هي من أصعب

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج ٢، ص ١٧٧.

الابتلاءات، وهي بحاجة إلى المزيد من الصبر والاستقامة، ليضربوا للناس جميعاً وللمؤمنين خاصة أفضل الأمثلة، وليكونوا أسوة قدوة وأروع أسوة.

والأنبياء جميعاً أئمة البشرية في كل عصر ومصر، ذلك لأن المؤمن حقاً هو الذي يؤمن بالأنبياء جميعاً. أما من اقتصر على الإيمان بنبي دون آخر، فليعرف أن إيمانه ناقص، بل وغير مقبول أبداً، وذلك يتضح من خلال سرد القرآن المجيد قصص الأنبياء؛ بالتأكيد ليس على سبيل التسلية، إنما بهدف الاعتبار، والذي هو ميراث الإيمان والتصديق.

ومن البلاء الذي تعرّض له النبي موسى على نبينا وآله وعليه السلام، أنه كان بُعث قائداً لأمة مستضعفة كانت تنتظر بعثته لينجيهم من طغيان الفرعنة، ولكن فريقاً واسعاً منهم، وبسبب حرمانهم واستضعافهم، تعرضوا له بالأذى وواجهوه بألوان التهم، فكان يصبر على أذاهم.

بلى؛ كان عليه الصبر في مواجهة أذى السلطة الفرعونية، والصبر على أذى قومه الذين تفننوا في كيل التهم له.

حقاً؛ إن في هذا لعبرة للقائد الرسالي كيف يتخذ الصبر درعاً سابعة ضد كل ألوان البلاء، ومن أي طرف جاء.

وهكذا بعد أن قتل موسى عليه السلام ذلك القبطي الذي اعتدى على الإسرائيليين بالأمس، أصبح اليوم خائفاً يترقب؛ أي أصبح شديد الحذر، نظراً إلى ما كان يتمتع به الأقباط، الذين هم عماد السلطة الفرعونية، من حصانة ومن بطش في مواجهة الأمة المستضعفة، حتى صار قتل أحدهم وإن كان ظالماً معتدياً جريمة لا تُغتفر.

لقد تجاوز مستوى الخوف حتى بلغ مرحلة الترقب، لا سيما

وأن القتل عملية خطيرة، وإنما يجوز بعد توافر مبررات شرعية وعرفية. لقد أصبح خائفاً في المدينة يترقب السلطات الأمنية، وهو لم يغادرها، وإنما توخى الحذر واستمر في القيام بمهامه قائداً رسالياً.

٢- ﴿فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرُ بِهِ، بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾

هذا الذي طلب من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن ينصره على القبطي يوم أمس، عاد اليوم يستنجد به، ولكنه لم يستغث به هذه المرة كما فعل بالأمس، وإنما استصرخه؛ بمعنى أنه خرج عن دائرة الأدب، ولعله تسبب لنبيه في مشكلة حيث لم يلتزم بالتقاة، بل راح يصرخ ويطلب العون من قائده عَلَيْهِ السَّلَامُ على علن.

٣- ﴿قَالَ لَهُ، مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِي مُبِينٌ﴾

ولعله أراد أن يؤدبه لكيلا يفتعل الصراع كل يوم، ذلك أن من أعظم مسؤوليات النبي، أن يعمد إلى تربية أتباعه على طريقة العمل الرسالي ومن ثم المقاومة وفق ما تمليه مصلحة الرسالة، ليتحقق النصر بأقل الخسائر وأسلم الطرق.

## بصائر وأحكام

من أعظم مسؤوليات النبي، أن يعمد إلى تربية أتباعه على طريقة العمل الرسالي، ليتحقق النصر بأقل الخسائر وأسلم الطرق.



## أتريد أن تقتلني؟

﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ  
أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۗ إِنَّ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا  
فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١ - ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا ﴾

بعد أن عاب النبي موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام على ذلك الإسرائيلي أنه يتسبب له في المشاكل وافتضاح الأمر، وهو في أشد حالات الخوف والحذر والترقب، أراد مع ذلك أن ينقذه من قبطي آخر، وهم بأن يبطش به.

٢ - ﴿ قَالَ يَمْوَسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾

لفرط استصراخ هذا الإسرائيلي بالنبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، اشتبه

عليه الأمر وظن خطأً أن النبي يريد أن يقتله هو هذه المرة، وذلك بعد أن سمع منه تقريباً، مضافاً إلى أنه رأى في مظهر النبي ﷺ أشد حالات الغضب.

**أقول:** ونحن نتناول تفسير هذا المقطع القرآني من سيرة النبي موسى ﷺ، تصادفنا مشكلة كبيرة جداً من جملة المشاكل التي تعرض لها هذا النبي العظيم، شأنه في ذلك شأن سائر الأنبياء ﷺ؛ والمشكلة هي أن النبي موسى كان بلا ريب يريد الخير لأتباعه والمؤمنين به، ولكن شريحة منهم كان يعوزهم الفهم ولا يستوعبون الحكمة من أقواله أو أفعاله، فتراهم كيف يسقطون في مشكلة الرد على النبي، أو عصيانه بالمرة، أو إفشاء أسرارهم.. الأمر الذي قد يتسبب بأن يوجه العدو ضربة موجعة وربما قاضية إلى مجمل الحركة الرسالية.

وهكذا نجد هذا الإسرائيلي الذي كان يستصرخ نبيه العظيم موسى ﷺ، يفضح سره أمام العدو بعد أن أساء الخطاب للنبي موسى ﷺ، حيث ناداه باسمه المجرد عن لقب أو كنية، بل واتهمه جهلاً بأنه يريد أن يقتله كما قد قتل نفساً بالأمس.. وهو بالتالي قد أعرب عن تشكيكه في مصداقية نبيه، بعد أن كان من المؤمنين به حتى الأمس. ويبدو أن النبي موسى ﷺ لم يعره اهتماماً. لماذا؟

لأن بني إسرائيل كانوا شعباً مستضعفاً، وفي مثله تنتشر عادة أخلاق الهزيمة والخوف والتردد وما أشبه. أما النبي ﷺ فقد واجه كل تلك الأخلاق من زاوية أبوية رحيمة تستهدف تهذيب نفوسهم وإصلاح مبادئهم وعقائدهم.

## بصائر وأحكام

إن النبي موسى عليه السلام كان بلا ريب يريد الخير لأتباعه، ولكن شريحة منهم كان يعوزها الفهم، فتراهم يسقطون في رذيلة الرد على النبي، أو حتى عصيانه بالمرة وإفشاء أسراره.



## فاخرج إني لك من الناصحين

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ الْمَلَأُ  
يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِيقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِيَّيْكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾

يبدو أن النبي موسى عليه السلام بقي لفترة خائفاً يترقب، بينما كانت السلطة تتأمر عليه، ولعلها لم تحسم أمرها فيما يتصل به إلا بعد حين، ربما لأنه كان يتمتع بقدر من الحصانة في بيت فرعون أو كان يتمتع بشعبية في قومه. وهكذا وبعد فترة جاء النذير، حيث وفد إليه رجل كان يتحسس الأمر في أجهزة النظام، وكان عيناً للنبي عليه السلام.

ولعل هذا الوصف القرآني لهذا الشخص بأنه رجل، يوحي بكونه كان مؤمناً صادقاً يمتلك من الشهامة والشجاعة قدراً عظيماً،

لا سيما مع ملاحظة مدى القسوة التي كانت تمارسها القوة الفرعونية. ولكن لماذا قال ربنا سبحانه: ﴿مَنْ أَقْصَا الْمَدِينَةَ﴾؟ هل كان بيته بعيداً عن وسط المدينة، أم أنه كان معتزلاً بإيمانه عن الناس، أم أنه كان يعيش في قصر فرعون أو دائرة من دوائر حكمه.. وكان القصر أو الدائرة في جانب من المدينة؟

أنى كان، ففيه دلالة على أنه قام بجهد كبير حتى وصل موقع موسى ﷺ من المدينة. مما يجعلنا ألا نألوا جهداً في إيصال الخبر العاجل لمن ينتفع به، حتى ولو اقتضى ذلك بذل المزيد من الجهد. أما سعيه، فكان كما يبدو مشياً سريعاً، إذ المشي الطبيعي يعكس عدم أهمية الأمر، كما أن الركض يمكن أن يلفت الأنظار، خصوصاً وأن الخبر الذي جاء به هذا الرجل للنبي موسى ﷺ لا يتحمل التأخير.

ومما سيخبر به هذا الرجل موسى ﷺ؛ يبدو أن القصر الفرعوني، أو مركز القرار الظالم لم يكن حصيناً بحيث لا يمكن اختراقه، كما أنه يصلح ليكون إشارة إلى أن هذا الرجل قد يكون عنصراً قبطياً يكتم إيمانه ويعيش في الوسط الفرعوني. فكما كانت السلطة تطلع على أخبار بني إسرائيل، كذلك كان من الإسرائيليين من يمكنه الاطلاع على أخبار القصر.

٢- ﴿قَالَ يَمْؤِسِي إِبْرَءِ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾

هذا هو الخبر الذي جاء به الرجل المؤمن ساعياً.

فلقد قرر الملأ، وهم الطبقة المؤثرة في قرار السلطة، إذ تشاوروا فيما بينهم وحاكوا مؤامرة خطيرة على حياة موسى ﷺ؛

أي إنهم تناهى إليهم سره في قتل اللذنين هما من كيانهم الظالم، فتأمروا ليقتلوه، لا سيما وأن القتل في حزب فرعون كان أمراً شائعاً يطال الأبرياء، فما بالك فيمن يطلبونه بدم يعتبرونه أعلى من أن يمس.

فصار موسى عليه السلام محور حديثهم ضمن تلك المؤامرة الحاقدة.

حذر الرجل النبي موسى عليه السلام بأنه صار محط مؤامرة تهدف تصفيته، وأن من الجدير به أن يحذر كل الحذر، لأن من نام في خضم الصراع لم ينم عدوه عنه.

٣- ﴿فَأَخْرَجَ﴾

اختار الرجل لموسى عليه السلام الهجرة من المدينة، ربما لأنه كان قد نظر إلى الأمر الخطير هذا من زاويته الخاصة، وأنه لم يكن يضاهيها ويناسبها سوى الخروج والهجرة، لأن العدو كان سوف يقبض عليه عاجلاً أم آجلاً. فالبقاء في بلاد العدو خطر عليه.

٤- ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾

نستوحي من هذه الكلمة أن الهجرة ليست أمراً بسيطاً ميسوراً في أغلب الأحيان، وإنها بحاجة إلى عزيمة راسخة. وهكذا فإن ما يميز الأنبياء عن غيرهم قضية الهجرة التي هي سنة حسنة من سننهم، لأنها تمكّنهم من تحاشي أخطار تحديق بهم من معانديهم أو ظالميههم، والحصول بالتالي على متسع لكي ينشروا رسالاتهم في بلاد عديدة، ولكي يجددوا قواهم ليعودوا إلى بلادهم بعد توافر عوامل الانتصار على أعدائهم.

وحسب بصائر الوحي، فإن الهجرة تُذكر مع القتال في سبيل الله تعالى. وذلك لأن القرآن الكريم كما يأمر الإنسان بالاستعداد للتضحية بالنفس في سبيل الله عبر القتال، يأمره بالاستعداد للتضحية بما في الوطن من جواذب الدنيا، ومن ثم تجاوز حواجز الخوف من المجهول عند اختيار الهجرة من الوطن، وذلك عبر التوكل على الله تبارك وتعالى والثقة بوعده الصادق.

## بصائر وأحكام

١ - الهجرة سُنَّة حسنة من سنن الأنبياء ﷺ، لأنها تمكّنهم من تحاشي أخطار تحديق بهم في بلادهم من قبل معانديهم أو ظالمهم، كما توفر لهم فرصة نشر رسالاتهم في العديد من البلاد، ومن ثم تجديد قواهم ليعودوا إلى الأوطان منتصرين.

٢ - في بصائر الوحي، الهجرة مقارّنة بالقتال، ذلك أن المقاتل يستعد للتضحية بنفسه في سبيل الله، والمهاجر يضحي بكل جواذب الحياة المتوافرة في وطنه ابتغاء مرضاة ربه.



## رب نجني من القوم الظالمين

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾

لقد هاجر موسى ﷺ من المدينة، ولكن كيف؟

٢- ﴿خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾

نستفيد من هذا النص أن على الفرد الرسالي الذي يواجه الأخطار أن يعمل بما ينبغي له أن يعمل، ثم يتوكل على الله تعالى.

لقد كان النبي موسى ﷺ خائفاً، وحالة الخوف مقتضى الطبيعة البشرية. والسؤال: كيف يتعامل المرء معها؟

ترى بعض الناس حينما تستولي عليه هذه الحالة، تفشل

إرادته وقد ينهار، إلا المؤمن فإنه يستثمر هذه الحالة في الحذر من المخاطر. كما أنه إذا حزن يواجه الحزن بما يجعله أصلب عوداً من الصبر، وإذا تردد تراه يسارع إلى الاستشارة والتخطيط، ومن ثم الطموح إلى ما يقضي على التردد.

وبكلمة واحدة؛ المؤمن يواجه أية مشكلة ترد عليه بما أوتي من بصيرة الإيمان وعزيمة التوكل، ولا ينطوي على نفسه أو ينهزم أمام الصعاب.

ولعله لذلك نجد القرآن الكريم يشير مرتين إلى حالة الترقب التي عمد إليها النبي موسى عليه السلام، كما يشير إلى توسله بالدعاء.

### ٣- ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

وهكذا نراه لدى خروجه من المدينة يدعو الله تبارك وتعالى ويطلب إليه أن ينجيه من القوم الظالمين.

إنه مضافاً إلى قيامه بواجبه من الترقب والهجرة، توجه بالطلب إلى الله. فلم يكتفِ بالعمل وحده، كما لم يكتفِ بمجرد الدعاء دونما عمل. مما يشير إلى ثلاث بصائر ذات أهمية:

١- إن العمل الصالح الذي يقوم به المؤمن، لا بد أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، والتوجه إلى الله بالدعاء يعكس هذا الخلوص.

بلى؛ الدعاء إلى الله تعالى من أهم ما يمكن أن يقوم به الفرد لدفع وساوس إبليس في تزيين التوجه إلى الشركاء المزيفين.

٢- قد يصاب المرء لدى قيامه بالعمل الصالح (الرسالي) بشيء من الحيرة والتردد، فلا بد هنا لدفع الحيرة أن يتوجه إلى ربه

والمدبر لأمره ليسر له من أمره مخرجاً.

٣- لا ينبغي لمن يعمل صالحاً أن يظن بأن عمله هذا هو وحده الذي يقربه من ربه، وإنما الإقرار بأن الله هو الذي وفقه لإنجاز العمل الصالح، ثم الدعاء وطلب المزيد هو الذي يقربه إلى الله تعالى اسمه، ذلك لأن الله قد يتلي العبد بأنواع الابتلاء ليبحث هذا الأخير عما يُقربه، فيفضل عليه بدرجات عالية من الهدى والرضوان والقربى منه.

### بصائر وأحكام

الخوف حالة طبيعية؛ غير أن البعض إذا استولت عليه هذه الحالة، تراه ينكفي على نفسه فيتردد وتخور عزيمته، بينما المؤمن يتحداها باليقظة والترقب، ثم بالصبر والاستقامة على الصراط، ثم يتحداها باليقظة والتخطيط والإقدام. وسيد مواقف المؤمن التوكل على الله سبحانه والدعاء والاستغفار.



## عسى ربي أن يهديني سواء السبيل

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءً

السَّبِيلِ﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

في صفحات التاريخ البشري نرى أن كثيراً من دعاة الإصلاح قد أُصيبوا بحالات الإحباط عندما عجزوا عن إقناع الناس بأفكارهم. بينما نجد الأنبياء عليهم السلام واجهوا الظروف الصعبة بالإنابة إلى الله سبحانه، والاستقامة على الطريق حتى النصر أو الاستشهاد.

ذلك أن أولئك لم يتوكلوا على الله تبارك وتعالى، فأمسوا محكومين بأجواء بيئاتهم. فيما النبي يأوي إلى ركن شديد، فإذا تواترت عليه المصائب، استمد من مقام ربه القوة وتوكل عليه وتحدى كل المصاعب.

وهكذا نجد النبي موسى على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام  
لدى خروجه من مدينة الفراعنة وتوجهه تلقاء مدينين يواجهه تلك  
اللحظة الصعبة، حيث لا وطن يأويه ولا بلد آخر يركن إليه، ولا  
ناصر ولا معين.. يتوجه إلى ربه ويثق بنصره، ويقول: ﴿عَسَىٰ رَبِّي  
أَن يَهْدِيَني سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾

لماذا قال ﷺ ﴿عَسَىٰ﴾ للتعبير عن الرجاء، أو لم يكن على  
يقين من أمره؟

أولاً: إن من أدب الخطاب مع الرب تعالى ألا يحتم عليه العبد  
شيئاً، فهو الذي يقدر بحكمته وبمنه ما يشاء، كيف يشاء.

ثانياً: كلما ازداد إيمان المرء ازداد تفويض أموره إلى ربه،  
وتقلّب قلبه بين اليأس والرجاء، ويزداد صلة به واستجارة ودعاءً.  
وتساءل أيضاً: ما معنى سواء السبيل؟

يبدو أن المقصود به ليس مجرد الدلالة على طريق بعض  
المدن التي قد تأويه، بل أعم من ذلك، بما فيه الدلالة إلى سبل  
السلام في الحياة. وهكذا سبل نشر رسالته، وكيف يواجه  
الكافرين.

ثم إن الاهتداء إلى سواء السبيل ذات درجات، لا يوفق الأنبياء  
لها إلا بمشيئة الله تعالى وكرامته لكل واحد منهم.

ولعل النبي موسى ﷺ قد قام بمسؤوليته كصاحب رسالة،  
حينما رجا ربه كي يهديه إلى أفضل السبل بعد أن فوّض أمره إليه.

\*\*\*



## بصائر وأحكام

لقد كان تاريخ الرسل حافلاً بالتحديات الصعبة، التي ما نالت  
من عزائمهم شيئاً، بل ازدادوا أملاً بعد التوكل على ربهم، وكذلك  
المؤمنون الرساليون.



## ولما ورد ماء مدين

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ  
يَسْفُوتُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا  
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٢٢)

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾

استجاب الله تبارك وتعالى لنبيه موسى عليه السلام طلبه حينما دعاه أن ينجيه من القوم الظالمين، فهدهاه إلى مدين، وكانت تقع في الجانب الشرقي من بلاد مصر.

لقد ذكرنا الرب بأن موسى عليه السلام كان من المحسنين، وقلنا: إن من إحسانه دفاعه عن المظلوم، وهو الذي أراد القبطي أن يسخره لعمله بلا أجر. وها هو يتجلى إحسانه عليه السلام مرة أخرى عندما أعان

امرأتين عجزتا عن نيل حقهما في سقي أغنام أبيهما. ولعله من هذا الإحسان وغيره، اختاره الله رسولاً.

٢- ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّكَاسِ يَسْقُونَ﴾

الأمة هي الجماعة من الناس المؤتممة بشخص. ولعل هذه الكلمة الواردة في النص القرآني الشريف تدل على طبيعة ذلك المجتمع، وأنه كان منظماً.

٣- ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾

لكن النبي موسى ﷺ كان دقيق الملاحظة؛ إنه يبحث أبداً عن محروم يغيثه، فهو لم يهاجر ولم يقصد مدين للنزهة.. وهذا هو شأن المؤمن ناهيك عن النبي، تراه يبحث عن ثغرة يسدها أو عمل صالح يرضي به ربه سبحانه.

٤- ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا؟﴾

أي: ما شأنكما وما هي مشكلتكما التي تمنعكما وتؤخركما عن سقي ماشيتكم كما يفعل الآخرون؟

٥- ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾

الرعاء جمع راعي، ويصدر أي يخرج الرعاء أغنامهم من الماء الذي وردوه. ويبدو أنهما عرفنا مضمون سؤاله بخصوص سبب تواجدهما للسقاية، ولماذا لا يتكفل بالأمر رجالهما، فقالتا:

٦- ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

يبدو أن أباهما كان النبي شعيب ﷺ حسب المأثور، وهناك إشارات أخرى تفيد بأنه غير النبي شعيب الذي بُعث من قبل إلى مدين.

## بصائر وأحكام

المؤمن يبحث أبداً عن ثغرة يسدها أو عمل صالح يقوم به،  
وقد مارس النبي موسى عليه السلام دور الإحسان الذي جعله الرب به  
رسولاً.



## رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير

﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٤).

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له: «وَأِنْ شِئْتَ ثَبِّتْ بِمُوسَى كَلِيمَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ، يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. وَاللَّهِ؛ مَا سَأَلَهُ إِلَّا حُبْرًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةَ البَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ (١) صِفَاقِ (٢) بَطْنِهِ، لِهَزَالِهِ وَتَشَدُّبِ لَحْمِهِ» (٣).

(١) شفيف: رقيق، يستشف ما وراءه.

(٢) صفاق: الجلد الباطن الذي فوقه الجلد الظاهر من البطن.

(٣) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦٠.

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام: «لَقَدْ قَالَهَا<sup>(١)</sup> وَإِنَّهُ لَمُحْتَاجٌ إِلَى شِقِّ تَمْرَةٍ»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قَالَ: «سَأَلَ الطَّعَامَ»<sup>(٣)</sup>.

## تفصيل القول

### ١ - ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾

هنا مارس النبي موسى عليه السلام الإحسان أن قضى حاجة امرأتين ليس لهما في ذلك الموضوع رجل يحميهما أو يساعدهما، فسقى لهما.

### ٢ - ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾

من هنا يُعلم أن الوقت كان صيفاً قائضاً، وكان عليه السلام قد وصل مدين للتو بعد سفرة مضنية للغاية، نظراً لبعدهم الشقة وطول المسافة، فأوى إلى الظل يستريح.

### ٣ - ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾

نتعلم من منطق النبي موسى عليه السلام أدب الخطاب مع الرب المتعال، فهناك حيث وكز الفرعوني وقضى عليه بضربة واحدة،

(١) أي قوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

(٢) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ١٣، ص ٥٩.

(٣) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٦، ص ٢٨٧.

ومع شعوره بالقوة البدنية المفرطة، استغفر ربه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾. وأفضل وقت للاستغفار وقت العمل الصالح، إذ لدى ممارسة العمل الصالح يتقرب العبد من ربه، فيحق له إذ ذاك أن يسمو إلى مرتبة الاستغفار.

وهو ﷺ حينما سقى للمرأتين وأغاثهما لم يغتر برجولته وشهامته، بل إنه لم يتفوه حتى بكلمة، وإنما راح يستريح إلى حيث الظل، ويخاطب ربه المتعال بالقول: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ إقراراً منه ﷺ بنعم الله تعالى التي واطرها عليه. وهذا عين الإقرار بالتوحيد، حيث يقر المخلوق بفقره الأبدي إلى خالقه الغني. وهكذا تراه في الحقيقة قبل أن يطلب نعمةً أخرى يتقدم بالثناء لما تفضل به الرب عليه.

حقاً؛ إن هذا من أهم آداب الدعاء، وكان النبي موسى ﷺ يتذكر كيف انقذه الرب من يد جلادي آل فرعون حين أرادوا قتله، فنهرتهم آسية زوجة فرعون، ثم كيف تربى مكرماً في بيت السلطان، ثم كيف آتاه الرب الحكم والعلم وأعطاه قوة، ثم خلّصه مرة أخرى من الظلمة وهداه إلى الهجرة، وهكذا..

حقاً؛ كلما ضاقت بالمرء مذاهب الدنيا، فليتذكر نعم الله عليه، ثم يسأله حتى ينجيه من كربته بفضله.

## بصائر وأحكام

أفضل وقت للاستغفار وقت العمل الصالح، إذ لدى ممارسة العمل الصالح يتقرب العبد من ربه، فيحق له إذ ذاك أن يسمو

..... | بينك من فقه القرآن - سورة القصص | .....

إلى مرتبة الاستغفار. وعند الكربات يتذكر المؤمن نعم الله عليه  
الماضية، ثم يدعو فيستجيب له الله بفضله.





## لا تخف نجوت من القوم الظالمين

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي  
يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ  
الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

\*\*\*

### من الحديث

عن صفوان بن يحيى، عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال: «سُئِلَ  
أَبَتُهَا الَّتِي قَالَتْ: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ﴾؟ قَالَ: «الَّتِي تَزُوجُ بِهَا»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١- ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾

حرصاً منها على العفة، كانت تمشي محافظة على وقارها،

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٧، ص ٤٣١.

ساترة زينتها، غير متبرّجة، ولا متبظّرة في مشيتها. هكذا واجهت البنت موسى عليه السلام، الذي كان غريباً عن تلك الديار.

٢- ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي بِدَعْوِكَ﴾

جاءته هي بأمر أبيها، لأنه لم يكن له ولد فيبعثه إليه.

٣- ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾

إذن؛ فالدعوة لإعطاء الأجر على ما قام به من عمل، مع أن النبي موسى عليه السلام لم يطلب منهم أجراً بادئ الأمر، ولم يكن يتوقع أن يُعطى أجراً فيما بعد، وإنما فعل ما فعل لغرض الإحسان وتحصيل الأجر من الله سبحانه وتعالى، ولكنه مع ذلك استجاب لها لحاجته إلى سبيل لولوج المدينة.

٤- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾

لم يتكلم موسى عليه السلام بكلمة، وإنما تقدم أمامها وهي تدله على الطريق بما كانت تلقيه من حصا كما في الحديث عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام <sup>(١)</sup>، وذلك لئلا ينظر إلى قوامها من خلف فتحصل الريبة. وهذا العمري خلق نبوي فاضل تلاحظ فيه العفة من الجانبين.

٥- ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾

يُذكر بهذا الصدد أن أبا المرأتين، وهو النبي شعيب عليه السلام، دعا النبي موسى عليه السلام إلى الجلوس وتناول الطعام، فأبى موسى عليه السلام ذلك.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ١٣، ص ٢٨-٢٩.

فقليل له: ألسنت بجائع؟

قال: بلى؛ ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا ينبع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً.

فقال له شعيب عليه السلام: لا والله يا شاب، ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف ونطعم الطعام.

عندها جلس موسى عليه السلام معه وأخذ يأكل الطعام<sup>(١)</sup>.

ثم إن هذين النبيين العظيمين راحا يتناولان أطراف الحديث، حتى حدثه موسى عليه السلام بحدثه وقصة مجيئه إلى مدين، وأنه قد خرج من مصر خائفاً من سطوة الفراعنة.

٦ - ﴿قَالَ لَا تَخَفْ تَجُوتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

أي إنك يا موسى أصبحت في مأمن من الظالمين، فلا مبرر للخوف منهم، إذ لا سلطة لهم عليك في مدين. وحيث ينتفي الخوف من المخلوق، يكون الخوف من الخالق خالصاً مكتملاً.

## بصائر وأحكام

لقد هيا الله سبحانه لموسى عليه السلام مكاناً آمناً ونجاةً من القوم الظالمين، وكذلك يُنجي المؤمنين إذا مروا بمثل ما مرَّ به النبي موسى عليه السلام، وقاموا بمثل ما قام به.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ١٣، ص ٢١.



## إن خير من استأجرت القوي الأمين

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَأَبُتِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرَتْ  
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (١٦)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: «قَالَتْ إِحْدَى بَنَاتِ شُعَيْبٍ:  
﴿يَأَبُتِ اسْتَعْجِرُهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَرَتْ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. فَقَالَ لَهَا  
شُعَيْبٌ: أَمَا قُوَّتُهُ فَقَدْ عَرَفْتِيهِ أَنَّهُ يَسْتَقِي الدَّلْوَ وَحَدَهُ، فَبِمَ عَرَفْتَ  
أَمَانَتَهُ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمَّا قَالَ لِي: تَأَخَّرِي عَنِّي وَدُلِّبْنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَنَا  
مِنْ قَوْمٍ لَا يَنْظُرُونَ فِي أَدْبَارِ النِّسَاءِ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ  
يَنْظُرُونَ أَعْجَازَ النِّسَاءِ، فَهَذِهِ أَمَانَتُهُ» (١).

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٣٨.

## تفصيل القول

١ - ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَعِجِرْهُ﴾

لا ريب في أن كل كلمة وردت في القرآن الكريم تؤدي رسالة حكيمة. وإذا كان الإنسان حين تكلمه يتوجه إلى بُعد معين، بينما يغفل عادة عن سائر الأبعاد، فإن كلام الله تعالى يتضمن الإشارة إلى كل الأبعاد، مما يستدعي أن نتوقف عند كل كلمة كلمة، فنستنطق القرآن فيما يتصل بها ونبحث عن آفاقها، فإن لم نجد في السياق القرآني جواباً عن سؤالنا، فلنحاول الاستفادة من المنهج الموضوعي، ونتجه إلى آيات أخرى مشابهة لنجد الإجابة.

مثلاً في هذه الآية حيث يخبرنا ربنا المتعال عن أن إحدى بنتي النبي شعيب عليه السلام اقترحت عليه أن يستأجر النبي موسى عليه السلام، فماذا كان السبب وراء هذا الاقتراح، وهل للبت أن تشير إلى ولي أمرها بفارس أحلامها، أم لا؟

لقد كان العرب الجاهليون يحرمون الفتاة من الزواج بمن تحبه، إلا أن الإسلام بعيد عن كبت الغرائز الإنسانية، وهو يوجهها بالوجهة الصحيحة.

أما موسى بن عمران عليه السلام كان ذا طلعة تدفع الناظر إليها إلى محبته، لما في ملامح وجهه من آيات البهاء والجلال والبراءة.

ونحن لا نستبعد أن كلمة هذه المرأة كانت ذات معنى، والقرآن كريم عبر عن ذلك بأسلوب رصين، كما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾<sup>(١)</sup>، وهي تريد من البيت الزوج، وقد أوتيت، حيث ذُكر أنها تحظى بالزواج من النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم في

(١) سورة التحريم، آية ١١.

الجنة<sup>(١)</sup>. ومعلوم أن البيت لا يقوم إلا بزواج.

ومغزى آخر من كلمة بنت النبي شعيب عليه السلام، أنها عنت بالاستئجار: الإبقاء عليه عندهم لما يتمتع به من صفات حميدة، أهمها القوة والأمانة.

وهنا نستلهم حقيقة شرعية: أن يبحث الأب عن خير الأزواج لبناته طبقاً لما حددته الشريعة الإلهية نفسها من خلق رفيع وتمسك بدين، دون تصغير الخد للناس والتعامل مع الخاطب المناسب باستعلاء بعيداً عن الموازين الشرعية.

٢- ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

لقد رأت قوته في ازاحة موسى عليه السلام بمفرده عن الماء صخرة لم يكن يحركها إلا عشرة من أشداء الرجال.. كما أنها رأت أمانته في عفة عينه عن النظر إليها.. فهي إذن قد توسمت فيه بفراستها، وهي ابنة نبي، صفات الكمال والصلاح.. وبالتالي؛ فهي لم تعجب به لمجرد المظهر والشكل المادي، لأن المظهر ليس بالضرورة أن يعكس المعايير الدقيقة للرجل المتكامل.

## بصائر وأحكام

المطلوب من الأب أن يبحث عن خير الأزواج لبناته، طبقاً لما حددته الشريعة الإلهية نفسها من خلق رفيع وتمسك بدين، دون تصغير الخد للناس، والتعامل مع الخاطب المناسب باستعلاء بعيداً عن الموازين الشرعية.

(١) انظر: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٣٤٦، نقلاً عن: الطبراني، المعجم الكبير، ج ٦: ٥٣.



## ستجدني إن شاء الله من الصالحين

﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي  
ثُمَّ لِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ  
أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٧) .



## تفصيل القول

١ - ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾

هنا نجد أن النبي شعيباً عليه السلام الذي طالما بكى من خشية الله وحبه تبارك وتعالى، هو الذي بحث عن الزوج الصالح المناسب لابنته. ولا ضير في أن يسعى والد يهتم بمستقبل ابنته من أجل تزويجها من رجل صالح، كما فعل النبي شعيب عليه السلام حينما رأى في النبي موسى عليه السلام كل تلك الخصال الحميدة، خصوصاً وأن إحدى ابنتيه قد اقترحت على والدها ذلك فيما يبدو.

ويبدو أن الله سبحانه وتعالى كافأ شعيباً عليه السلام على عظيم حبه وعلاقته به، فهيأ له صهراً يخدمه، وهو موسى عليه السلام، الذي بدوره لم ينسَ الاهتمام بحاجته المادية والاجتماعية مع عظيم ما يحمل من رسالة سماوية إلى الناس.

ثم إن شعيباً عليه السلام مع عرضه هذا، لم يحدد بنتاً معينة من بنتيه، والأمر يبدو على درجة من الأهمية، بل ترك الخيار لموسى عليه السلام، ربما لكيلا يميز بين ابنتيه.

٢- ﴿عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَّجٌ﴾

هل الاستئجار هنا بمثابة المهر الواجب على موسى عليه السلام أن يقدمه لزوجته؟

لعل الاستئجار هذا ولمدة ثماني سنين كان بمثابة شرط ملحق بعقد الزواج، وباعتباره غير مناف لحقيقة النكاح؛ لأنه لا يحلل حراماً أو يحرم حلالاً فقد جاز، لا سيما وأن النبي شعيباً عليه السلام كان قد علم الرضا المسبق من ابنته، حيث قالت له: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتِ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، أو كان هذا النوع من المهر جائزاً يومئذ وقد نُسِخ في شرعنا.

وجاء في بعض التفاسير، وبناء على نصوص مأثورة، أن الهدف من هذا الشرط كان بقاء موسى عند شعيب عليه السلام، خدمة لأهداف تتعلق بالرسالة، مثلاً تنامي مواهب النبي موسى في بيت شعيب ذلك النبي العظيم، كما تنامت مواهب يوسف الصديق في بيت الذي اشتراه من مصر.

أما استعمال مفردة (الحجج) للدلالة على السنوات، فإنه يدل

على أن فريضة الحج كانت معروفة في تلك الحقبة، لأنها الفريضة التي جددها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهناك روايات ماثورة تدل على أن موسى بن عمران حج إلى بيت الله الحرام، منها قول الإمام محمد الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حَجَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَعَهُ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حُطُّمٌ<sup>(١)</sup> إِبِلِهِمْ مِنْ لَيْفٍ، يُلَبُّونَ وَ تُحْبِبُهُمُ الْجِبَالُ، وَعَلَى مُوسَى عَبَاءَتَانِ قَطَوَاتَيْنِ يَقُولُ: لَبَّيْكَ عَبْدُكَ ابْنُ عَبْدِكَ»<sup>(٢)</sup>.

٣- ﴿فَإِنْ أَتَمَّمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾

تتضمن العقود بطبيعتها حدًّا أدنى وحدًّا أعلى، ولذلك جعل النبي شعيبُ النبي موسى بالخيار بين الحدين.

٤- ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾

إشارة من شعيب النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أنه لم يكن يريد استغلال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو تحميله أكثر من طاقته. وهذا مستوى من الأدب الرفيع لدى معاملة الناس بعضهم مع بعض، ألا يشق بعضهم على بعض في العقود.

٥- ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

هكذا أخبر شعيبُ موسى، بأنه سيراعي حقوقه ويتعامل معه بأفضل وسيلة ممكنة.

وهذا المنهج يزيد الثقة بين الأفراد، ويساهم في تكوين علاقات طيبة فيما بينهم.

(١) الخطم جمع خطام، وهو زمام البعير. (مجمع البحرين، خطم، ج ٦، ص ٥٩).

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ٢١٤.

## بصائر وأحكام

من خلال بيان القرآن الكريم لقصة عقد القران بين النبي موسى عليه السلام وبنت النبي شعيب عليه السلام نستفيد عدة آداب:

١- إن النبي شعيب عليه السلام اختار شاباً غريباً عن تلك الديار، وفقيراً (في ظاهر الأمر) بمقياس الأمانة والكفاءة. وهذا أصل أصيل في اختيار الصهر، بل في كل اختيار.

٢- والد البنت هو الذي اقترح على الشاب أن يتزوج ابنته، وخلافاً لبعض الأعراف الخاطئة.

٣- لم يطلب الوالد أمراً شاقاً منه، بل ووعده أن يكون صالحاً في معاملته معه.



## والله على ما نقول وكيل

﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ ﴿٢٨﴾

\*\*\*

### من الحديث

روى الواحدي بالإسناد عن ابن عباس، قال: «سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَىٰ مُوسَى؟ قَالَ: أَوْفَاهُمَا وَأَبْطَأُهُمَا»<sup>(١)</sup>.

وعن صفوان بن يحيى، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قِيلَ: فَأَيُّ الْأَجَلَيْنِ قَضَى؟ قَالَ: أَوْفَاهُمَا وَأَبْعَدُهُمَا عَشْرَ سِنِينَ. قِيلَ: فَدَخَلَ بِهَا قَبْلَ أَنْ يَمْضِيَ الشَّرْطُ أَوْ بَعْدَ انْقِضَائِهِ؟ قَالَ: قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِي. قِيلَ لَهُ: فَالرَّجُلُ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ، وَيَشْرُطُ لِأَيِّهَا إِجَارَةَ شَهْرَيْنِ، أَيَجُوزُ ذَلِكَ؟ قَالَ: إِنَّ مُوسَى عَلِمَ أَنَّهُ سَيِّئٌ لَهُ شَرْطُهُ. قِيلَ: كَيْفَ؟ قَالَ: عَلِمَ أَنَّهُ سَيَبْقَى حَتَّى يَفِي»<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٧، ص ٤٣٢.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٧، ص ٤٣٢.

## تفصيل القول

١ - ﴿ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ فَضَيْتَ فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ ﴾

وافق النبي موسى عليه السلام على حد الثمان سنين، ولكنه أبقى الخيار لنفسه فيما إذا أراد أن يبقى سنتين إضافيتين، التزاماً منه بالعدالة والإحسان. إذ العدل أن يأخذ المرء حقه وأن يعطي الناس حقوقهم كاملة، بينما الإحسان إعطاء الأكثر، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾<sup>(١)</sup>.

فالعامل بقانوني العدل والإحسان معاً متوقع، لا سيما من قبل النبي والقائد الرسالي، لأن الأهم من التعامل المادي البحت الذي يؤمن المصالح، هو التواصل المعنوي، نشرًا للمعروف وتحقيقاً لواقع القدوة الحسنة. إذ ليست قيمة المرء بالمال أو الجاه، وإنما هناك ما هو أسمى وأرقى من ذلك، وهو الإحسان، وتفعيل روح القوانين، وإحراز أخلاقياتها، حيث يحرص كل فرد من أبناء المجتمع على أن يصبح صاحب المبادرة في العطاء، لكي تكون يده العليا دائماً فيما يتصل بالعلاقة مع الآخرين.

٢ - ﴿ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

من الرائع أن يعلم المرء أن علاقاته مع الناس تخضع لتغييرات بسبب الضغوط المختلفة، ولا يمكنه ضبطها إلا عبر الإيمان بالله سبحانه وتعالى. ذلك الإيمان العميق الذي يردعه عن الالتفاف حول القوانين من أجل استغلال مكان من ضعفها. أليس الإنسان أكثر شيء

(١) سورة النحل، آية ٩٠.

جدلاً، وأحرص على الأعذار لتبرير ضعفه وانفلاته عن الالتزام بالقوانين والأحكام.. فلا يبقى أمام الإنسان في مثل هذه الحالة إلا أن يؤمن بهيمنة الرب وأنه شاهد على أفعاله، بل وحتى على نواياه. فإذا ما جعل المرء ربه المتعال شاهداً عليه، ساد علاقته مع الآخرين جو من العدل والإحسان.

ولهذا وغيره، نجد النبي موسى عليه السلام أعلن التزامه التام بما التزم به، ثم مهد لاحتمال التزامه الثاني بالسنتين الآخرين، ثم جعل الله تعالى وكياً على التزامه بما اشترط عليه النبي شعيب عليه السلام، إشارة منه إلى أنه عليه السلام ما تصرف بهذه الطريقة إلا ليؤكد بأنه لا يحتم على نفسه أمراً، علماً أن الظروف المتقلبة لا بد أن تتحكم فيها الالتزامات الشرعية.

## بصائر وأحكام

١- العمل بالعدل والإحسان، لا سيما من جانب القائد الديني الرسالي، أمر متوقع؛ لأن الأهم من التعامل المادي هو التعامل المعنوي، نشرًا للمعروف وتحقيقاً لواقع القدوة الحسنة.

٢- لكيلا تتأثر العلاقات الاجتماعية بالمتغيرات، ولا تنحرف عن مسارها بالضغوط، لا بد أن يجعل المؤمن ربه شاهداً عليها ووكياً. فبالإيمان به وحده يقدر المؤمن على ضبط تلك العلاقات على أسس سليمة وتجاوز الضغوط.



## أنس من جانب الطور ناراً

﴿﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ۚ آنَسَ مِنْ جَانِبِ  
الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا  
بِخَبْرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٩﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ ﴿﴾

لم يشير القرآن المجيد إلى تفاصيل حياة النبي موسى عليه السلام في مدين وفي أسرة النبي شعيب عليه السلام، ولكنه بين الخطوط العريضة لما أسس موسى عليه السلام لحياته بإذن الله تعالى وتوجيهه، ومن ذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ كإشارة صادحة بأنه عليه السلام عاش في مدين حياته الجديدة مع النبي شعيب عليه السلام وبنته التي اختارته لقوته وأمانته وإحسانه.

أما الأجل الذي قضاه موسى عليه السلام والوارد ذكره بالألف

واللام المستعملة للاستغراق يشير إلى أنه قد قضى الأهم ممَّا اتَّفقا عليه (عشر سنين)، لأنه كان قد نوى شأنه في ذلك شأن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأولياء الصالحين أن يوفي حقوق الآخرين بأبعد ما يستطيع ليكون هو المحسن. فنجد عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قد قضى أبعدهم الأجلين بسننيه العشر بلورة لشخصيته بإذن الله تعالى واصطناعاً منه سبحانه لنبهه.

## ٢- ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾

هل سار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأهله بالليل أم بالنهار؟

واضح أنه اختار السير ليلاً، مما قد يدل على أنه كان لا يزال في وضع غير طبيعي تجاه التحسس من سلطة فرعون وعيونه التي ربما كانت مبثوثة في الطرق المؤدية إلى مصر، بل يبدو أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تنكب عن الطريق المألوف، فضلَّ الطريق. ومثل هذا الضلال جازز على الأنبياء لما يتبع ذلك من حكمة تتكشف فيما يلي من حياتهم المباركة.

## ٣- ﴿ءَأَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطَّوْرِ نَارًا﴾

من الذي يأنس؟

إنما الإنسان المستوحش من الطريق أو العدو هو الذي يأنس، فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يبحث عما يأنس به. وهذه المفردة ءَأَنَسَ تعكس الصورة التي كان عليها هذا النبي العظيم، لا سيما وأنه كان يسير فيما يبدو على طريق خطر، مضافاً إلى احتمال مواجهته من يحذر خطرهم، ولكنه كان رابط الجأش باعتباره قد أسلم أمره إلى الله تعالى مجده وتوكل عليه منذ البداية ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ <sup>(١)</sup>.

أما الطور، فهو الجبل المزروع، أو المزروع بالزيتون خاصة.

(١) سورة الطلاق، آية ٣.

أما الجبل الأجرد فلا يسمى طوراً.

وهو حينما رأى النار على بُعد، وهو يسير في تلك الليلة الظلماء، ولدى التوجس من مخاطر الطريق إلى مصر حيث جعلها الغاية من مساره.. أنس بها، إذ لعله يرى من الناس من يركن إليهم في جانب الطور ذلك.

٤ - ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾

قال لأهله ذلك، وقد تبعثت أغنامه التي كان يسوقها في الصحراء، خشية منه أن يصيبهم مكروه من النار المجهولة المصدر. فهو إذن كان شديد الحذر من الأعداء والمجهول، لا سيما وأنه كان وحده، ولعله لذلك لم يستصحب أهله ولا ماله.

٥ - ﴿إِنِّي عَائِسْتُ نَارًا﴾

لما كان موسى ﷺ يتقدم أهله في المشي، فقد رأى النار قبلهم، أو رآها بما كشف الله تعالى له دونهم، أما تكرار مفردة (الأنس) فلا، لأنه، والله العالم، أراد أن يوحي إليهم بالاطمئنان لمعرفته بالخوف الذي كانوا يشعرون به أيضاً.

٦ - ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾

أي: إنني سأذهب بعد مكثكم لاستطلع حقيقة هذه النار في هذه المنطقة الموحشة. ويبدو أن كلمة الخبر تدل على أنه كان لا يعلم أين الطريق، فيخبره أصحاب النار التي رآها بالجادة.

٧ - ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

الجذوة القطعة من النار لتنير لهم الدرب، ولتكون سبباً في تدفئتهم.

أقول: إن المفردات الواردة في هذه الآية تصور للقارئ طبيعة الأجواء التي كانت تحيط بقافلة النبي موسى عليه السلام في رحلة عودتها إلى مصر، ومدى الصعوبات التي سوف يلقاه المهاجرون عند العودة.

### بصائر وأحكام

- ١- منهج النبي موسى عليه السلام شأنه شأن الأنبياء عليهم السلام والأولياء الصالحين أن يوفوا بحقوق الآخرين بأبعد قدر ممكن، ليكونوا من المحسنين. وهكذا وفي موسى عليه السلام أبعد الأجلين.
- ٢- ولعله قد تنكَّب عن الطريق المألوف حينما عاد إلى مصر، حذراً من فرعون وعيونه المبتوثة في الطرقات. وهذا ما يعانيه المهاجرون عند العودة.



## أنا الله رب العالمين

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَلْطِيِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ  
مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُقَ إِفْتِ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾

أين أتى؟ وهل كانت ناراً حقيقية، أم نوراً؟ وقد تعجب موسى  
ﷺ حينما وجد أن الشجرة شديدة الخضرة والنار من حولها، فيما  
لم يكن أحد هناك، ولم يجد دخاناً ولا حرارة.. فتأكد له أن المنظر  
المائل أمام عينه كان نوراً يتوهج.

٢- ﴿ نُودِيَ مِنْ شَلْطِيِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾

صدر له النداء من الشاطئ؛ أي الحافة. ويبدو أن موسى ﷺ

في الحقيقة لم يكن قد دخل بعد، وإنما مكث هنيئة عند حافة الوادي الواقع إلى يمين البقعة المباركة من الشجرة.

والأولى القول هنا بأن ﴿الْأَيْمَنُ﴾ إن كان من اليمين، فهو البجوحة واليسر، وإن كان من اليمين، فهو الجهة والوجهة، حيث تحسب هنا بالنسبة لموسى عليه السلام دون الوادي. وهنا مفارقة ينبغي أن تُفهم، وهي أن الفرد إذا كان مائلاً أمام شيء جماد، فقالوا له: على اليمين، فيعني على يمينه هو، أي على يسار ذلك الشيء.

أما وصف المكان بالبقعة المباركة مع كونها محصورة فيبدو أن بركتها باعتبار كونها مهبط الملائكة بالرسالة وموطئ الأنبياء عليهم السلام، ومن بركتها أنها لم تحرق شجرتها بالنار مع استيلائها عليها.

٣- ﴿أَنْ يَمْوَسَىٰ إِفْتٍ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

نودي موسى عليه السلام بهذا النداء الإلهي الرباني. والإنسان يُنادى عن بُعد لِيُجْتَدَبَ وَيُسْتَدْعَى ثم يُنَاجَى. وهكذا كان الموقف مع موسى عليه السلام كما تبين آيات قرآنية شريفة أخرى، مما يعني أن الإنسان لا يعي شيئاً من المعارف ولا يدرك المقام الإلهي دون جذب إلهي ونعمة ربانية، ذلك لأن كل حول وقوة يتمتع بهما الإنسان من عند الله تعالى. ومع أن العقل هو أداة الفهم لدى الإنسان، إلا أنه هو الآخر فيض من الله تبارك وتعالى. وقد ورد في المناجاة الشعبانية المروية عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِلَهِي؛ هَبْ لِي كَمَالَ الْإِنْقِطَاعِ إِلَيْكَ، وَأَنْزِرْ أَبْصَارَ قُلُوبِنَا بَضِيَاءَ نَظَرِهَا إِلَيْكَ، حَتَّى تَخْرِقَ أَبْصَارَ الْقُلُوبِ حُجُبَ النُّورِ، فَتَصِلَ إِلَيَّ مَعْدِنِ الْعِظَمَةِ»<sup>(١)</sup>.

(١) إقبال الأعمال، السيد ابن طاووس، ج ٣، ص ٢٩٩.

إن الله تعالى هو مصدر كل خير، وهو الخالق لكل موجود،  
وبه تُعرف الأشياء.

بلى؛ إن أغلب الناس يضلّون الطريق إلى معرفة ربهم، فإذا  
بوساوس الشيطان تستولي عليهم، لأن القلب لا يبقى فارغاً، فإن لم  
يشرق عليه ضياء الرحمن سادته ظلام الشيطان. فيما الله عز وجل ليس  
بعيداً عنهم، ولا محجوباً إلا بقدر ما يحتجبون هم عنه. فهو سبحانه في  
كل مكان ولا يخلو منه مكان، وهو في كل زمان ولا يحيط به زمان..  
وقد كلّت العبارات عن الوصول إلى عظمته، وانحسرت الكلمات عن  
رحاب قدسه، فلا نقول: أين؟ ولا كيف؟ ولا متى؟

تري متى كان الله -تعالى مجده- غائباً؟

إنه تعالى أقرب إلى قلوبنا ونوايانا منا.

إنه الموجود الأول والأبدي؛ إذا ما نزع الإنسان عن نفسه رداء  
الكبر وتجاوز عقبة الغفلة، وجدته عنده. ألا ترى كيف تجد ربك إذا  
داهمتك الكوارث، فلا تجد يوماً مثلاً أقرب إليك منه.

لقد رحل موسى عليه السلام إلى شاطئ الوادي، فوصل إلى عالمٍ  
آخر. بلى؛ إنه استشرف الغيب وتجرد عن الشهود وهو في الدنيا.  
وكان الرمز في ذلك خلعه نعليه بأمر الله تعالى، مع أن نعال السائر  
في الصحراء أحوج الحاجات إليه، وتجرد عن التفكير والتعلق  
بالأهل والممتلكات..

لقد تجلّى الله تعالى في لحظة لعبده موسى عليه السلام الذي  
اصطنعه لنفسه؛ تجلّى له بالوحي الذي هو أوضح شيء عند من  
يوحي إليه الرب. إنه اليقين ذاته.. إنه حق اليقين.

بلى؛ إن ابن آدم مهما كان رشيداً، عاجزٌ عن تحمل خطاب الرب المتعال المباشر إلا بتوفيق مسبق منه، وإن الله تبارك اسمه ليعطي الأنبياء عليهم السلام مزيداً من القوة لكي يتلقوا وحيه، وإلا كادت قلوبهم تتصدع.

ثم إن سائر تفاصيل حياة النبي موسى عليه السلام الإيمانية كانت صنعة هذه اللحظة المباركة من حياته؛ لحظة التجلي الرباني له عليه السلام.

لقد خاطب الرب سبحانه موسى عليه السلام باسمه الكريم أنه رب العالمين. فكل شيء فيها قائم بفيض عطائه وحكم تديره، ولكنه مع ذلك ليس متداخلاً مع شيء في العالمين. من هنا عرّف نفسه بأنه الله جل جلاله حيث ينبغي أن يُعرف بهذا الاسم الذي اختص به لتخلص العبادة ويكتمل توحيده بذلك.

## بصائر وأحكام

١- لا يدرك الإنسان شيئاً من المعارف والمقامات دون تعريف الرب له وجذب منه، ذلك لأنه مصدر كل حول وقوة.

٢- ترى أكثر الناس يضلّون الطريق إلى معرفة ربهم، فيتعرضون لموجات من وساوس الشيطان، لأن القلب لا يبقى في فراغ؛ فإما يشع عليه نور الرب، أو يستولي عليه ظلام الشيطان.



## إنك من الأمنين

﴿وَأَنَّ أَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ  
يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمْنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَأَنَّ أَلْقَى عَصَاكَ﴾

كما ورد في الآية الشريفة السابقة قوله تعالى: ﴿أَن يَمْوَسَىٰ﴾ وردت الأداة ﴿أَنَّ﴾ مرة أخرى، وهي أداة ذُكرت لتفسير ما قبلها.

بلى؛ تلك العصا التي قدمها النبي شعيب عليه السلام لصهره الكريم، كانت من مواريث الأنبياء عليهم السلام. فراح يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وكان له بها مآرب أخرى.

فحيث وصل موسى عليه السلام عند الشجرة، ونودي من شاطئ

الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴿أَنْ يَمْوَسَّجُ إِفْتِ أَنَا  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .. نودي: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ .

هكذا كان إلقاء العصا ضمن مشروع بعثته، وهي مما اختص به  
من فضائل ونعم وبركات بعد أن مرَّ ﷺ بابتلاءات صعبة، يتسامى  
عبرها عادة النبيون ﷺ، كما ابتلى إبراهيم ﷺ ربه بكلمات  
فأتمهن، فقال له: إني جاعلك للناس إماماً.

لقد بين القرآن المجيد في مواطن شتى، ومنها هنا في هذه  
السورة المباركة، تفاصيل قصص النبي موسى ﷺ كما لم يتناول  
تفاصيل حياة سائر الأنبياء ﷺ. لماذا؟

لعلنا نعتبر بالسيرة المباركة لهذا النبي الجليل، ومن مختلف  
مراحلها. فمنذ كان طفلاً رضيعاً خافت عليه أمه، فأودعته بأمر الله  
تعالى التابوت ثم جعلت التابوت في اليم، إلى أن دفعته أمواج اليم  
إلى بيت فرعون ثم أعيد إلى أمه بعد أن حرّم الله عليه المراضع، ثم  
ترعرع وكبر عند فرعون برعاية الله تعالى، ثم بين كيف قتل رجلاً  
من أعدائه، وإلى هجرته واستقراره عند شعيب النبي ﷺ، ثم إلى  
عودته وابتعائه رسولاً.

كل ذلك لعلنا نستفيد أن السمو إلى مقام القيادة والقُدوة  
للناس ليس بالأمر السهل، فلا يجوز لنا الاستهانة بأمر القيادة، والتي  
تستتبع الكارثة المتمثلة في اختيار الإنسان لنفسه إماماً غير أمين أو  
غير كفوء، وبالتالي غير مؤيّد من عند الله تعالى. ذلك لأن الإمام  
هو الذي يضمن ويحدّد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة، وبالتالي  
يجب معرفة الإمام (القائد) حق المعرفة. إنها مسؤولية الإنسان  
الكبرى أن يختار الإمام وليس له اتّباع أي إنسان يشاء.

٢- ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾

امثل موسى ﷺ أمر ربه، فألقى عصاه التي يبدو أنه لم يكن يعرف حقيقتها والحكمة من وصولها إليه؛ ألقاها أرضاً، فرآها تهتز كأنها جان؛ أي أفعى، توجهت إلى ناحيته، فاضطر إلى الهرب باتجاه المسار المخالف، لخوفه من هذا المنظر الذي لم ير له مثيلاً من قبل، بل إن خوفه كان شديداً للغاية، حتى إنه لم يلتفت وراءه.

وليس ذلك بمنظر غريب، لأن موسى ﷺ مع تدرجه في الابتلاءات، إلا أنه كان في الوقت ذاته بشراً إنسانياً يراد له أن يتحمل مسؤوليات النبوة الثقيلة، ومن المتوقع أن يتصرف كما يتصرف البشر متوكلاً على ربه من دون أدنى شك في نصره له.

وهذا التصوير القرآني لهذه المشاهد وبهذه الدقة، إنما الهدف منه أن نعتبر، وأن نعرف أن النبي إنما هو بشر (فليس نصفه إله سبحانه الله)، وميزته وحي الله إليه ونصره له، ولكل بشرٍ أن يقتدي به في معرفة وحيه وفي التوكل على الله. ولو كان النبي حاشا لله نصف إله، لما كان لنا أن نقتدي به، ولكانت الحكمة في إرساله قد بطلت.

وقد يراد بتشبيه العصا بالجان، نظراً لما هو معروف عن الجن وسرعته وخفته، وكان هذا المنظر يتضمن هالة من الخوف والرعب.

٣- ﴿يَنْمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾

أمره الله بالعودة إلى مكانه، وبألا يخاف من ذلك المنظر. ذلك لأن المرسلين ليس من شأنهم التأثر بالأحاسيس إذا رأوا البراهين الإلهية، وشاهدوا الآيات. فأقبل موسى ﷺ ولم يعد يخاف؛ لا في تلك اللحظة ولا في غيرها، لأن النبي المعصوم يقوده الوحي؛

فلم يعد يخاف من فرعون، هذا الذي سيمتلى رعباً من منظر العصا وهي تنقلب إلى أفعى.

٤ - ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾

مَنْ هُمُ الْأَمْنُونَ، الذين يكون النبي ﷺ من جملتهم؟  
لا ريب هم الذين لا يخشون أحداً إلا الله عز وجل، وفي  
مقدمة هؤلاء النبي وأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله.

### بصائر وأحكام

إن الإمام هو الذي يحدّد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة،  
وبالتالي يجب معرفة الإمام القائد حق المعرفة، وهي أعظم  
مسؤولية، وعلى الإنسان أن يكون دقيقاً عند اختياره الإمام. ومتى  
ما أرادت الأمة أن تختار إماماً، وجب عليها أن تبحث طويلاً حتى  
تتعرف عليه وبتقّة كاملة.



## برهانان من ربك إلى فرعون

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ  
إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى  
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٣٣﴾



## تفصيل القول

١ - ﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾

هاهنا نجد السياق يحدثنا عن معجزة أخرى آتاه الله تعالى رسوله موسى عليه السلام إثباتاً لصدقه وزيادة لقدرته في مواجهة فرعون، وهي آية مبصرة صادعة. فإذا أدخل موسى عليه السلام يده في شق قميصه من تحت رقبته ثم أخرجها، خرجت بيضاء من غير سوء؛ أي لا يتبادر من بياضها نوع مرض كالبرص. فهي إذن آية ويد رحمة، يد بيضاء تشير إلى تمام نزاهة الرسول وتمام صدق الرسالة.

إن هذه المعجزة، شأنها شأن سائر المعاجز الإلهية وفرت أكبر فرصة للناس لكي يهتدوا إلى الحق. ولذلك كان مصير من جحدها العذاب.

وهكذا كلما كانت آيات الله سبحانه أكثر وضوحاً، كان جحد الكافر بها أقرب وربما أشد.

## ٢- ﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾

إنها آية أخرى، حيث أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يجمع يديه فوق العضدين ليشعاً نوراً أو بياضاً. وأنه حقاً برهان آخر يتضح إذا ضم موسى عليه السلام جناحه إلى صدره تواضعاً لله تعالى.

وحيث كان يُتَظَر من النبي موسى عليه السلام بعد ما رأى من تلك الآيات وازداد علماً أن يستجمع قواه ويعقد عزمات قلبه لحمل رسالته العظيمة، كانت هذه الآية بمثابة تهيئة لجوارح موسى عليه السلام، وكأنه يريد التوجه لمعركة مصيرية فيزداد صلابة عند مواجهة العدو. علماً بأن الله تعالى طالما أمر أنبياءه بأن يتحملوا مسؤولياتهم بعزم راسخ، ويأخذوا الكتاب بقوة. وهذا يتطلب المزيد من الإقدام روحاً وجسداً.

## ٣- ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾

آيتان من الله تعالى، وعلى النبي موسى عليه السلام أن يتخذ منهما برهانين قاطعين لا مجال للرد عليهما من جانب فرعون وبطانته.

ولعل ربنا تعالى اختار لموسى عليه السلام هذا النوع من المعاجز (العصا واليد البيضاء) تحدياً للسحر الذي انتشر في تلك البلاد، تماماً كما كان سبحانه يبعث الرسل بالتحدي للأمم فيما هم متفوقون

فيه، حتى لا يبقى لأحد عذر بأنهم أخذوا في غير ما تميزوا به. ونحن نرى كيف أعطى هذا التحدي ثمره، إذ سرعان ما ألقى السحرة الذين جلبهم فرعون لمواجهة موسى عليه السلام ساجدين مؤمنين له بعد أن ثبت لهم أن ما جاء به النبي موسى عليه السلام ليس سحراً باطلاً، وأنه من عند ربهم وليس ناشئاً من تفوق بشري لشخص موسى عليه السلام.

بلى؛ إن الآية الإلهية ليست مجرد ممارسة يقوم بها الأنبياء عليهم السلام بقوتهم كبشر، وإنما هي متصل بعالم الأمر الإلهي الذي يتجاوز السنن القائمة في عالم الخلق، والهدف من تلك الآية قد يكون للدلالة على صدق الرسول، وأنه مؤيد من عند الله.

#### ٤ - ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ ❖

لقد كان فرعون وملؤه منذ بدء تأسيس كيانهم قوماً مجتمعين على الفسق (والخروج) عن جادة العدل.

ويبدو أن فسقهم كان من أسباب كفرهم بالرسالة، لأن العلاقة بين الفسق والكفر متينة، على أنه مثل هاتين الكلمتين قد تتبادل مواقعهما في الكتاب، فيقال: كافر هنا، وفسق هناك، للإشارة إلى حالة شاذة، لأن الفسق خروج الإنسان عن حدوده المرسومة عقلاً وعرفاً وعند الدين، كما تخرج الثمرة عن قشرها. وخروج الإنسان هذا هو مستوى من الكفر، لأنه تمرد على الإرادة الإلهية.

ولعل القرآن المجيد أظهر الواقع الخاطئ (الحالة الشاذة) لهؤلاء، وأن جوهرهم إجرامي، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ ❖، ذلك لأن كلمة ﴿كَانُوا﴾ تستعمل لبيان ماضي مستمر، والحالة لا تستمر إلا لعلة معينة؛ فمثلاً قوة بطش النظام أو شدة العصبية أو

التمادي في الغفلة والجهل وما إلى ذلك، إنها كانت وراء استمرار حالتهم الشاذة.

وهكذا ترى هؤلاء القوم تحيطهم مشكلة حادة لتراصهم على الباطل، وتعاونهم على الإثم والعدوان. فهم مجموعة لا يرجى صلاحها إلا من دائرة غير دائرتهم. وها هو موسى عليه السلام قد أقبل بكله على تبليغ رسالته.

### بصائر وأحكام

المعجزة ليست ممارسة ذاتية يقوم بها الأنبياء عليهم السلام على وجه الاستقلال، وإنما هي تتصل بعالم الأمر الذي يحيط بالخلقة وما فيها من أنظمة وسنن، وتتجلى على يد النبي، وحكمتها تأييد النبي بالغيب وردع الجاحدين عن شكوكهم.



## فأخاف أن يقتلون

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَنَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿٣٣﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

أقبل النبي موسى عليه السلام على ربه بكل وجوده، ولكنه ومن منطلق الحرص على الرسالة أظهر خوفه من قتله على يد الظالمين بسبب قتله للقبطي، ولعله أراد أن يظهر أن الرسول ينبغي ألا تعتوره نقطة ضعف يحاسبه عليها أعداؤه، فعرض على ربه أنه متهم بقتل نفس من نفوس المجتمع الفرعوني، وهكذا فإنهم لا ريب سيرفعون بوجهه تهمة القتل ويتكالبون على تصفيته بمجرد الظفر به، فيقضى على رسالته في مهدها.

وهنا نتساءل: إذا كان هذا إحساس النبي موسى عليه السلام، فما الذي حدا به إلى الرجوع إلى مصر أساساً؟

يبدو أن نبوة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانت متكرسة فيه؛ أي إنه كان يعلم بها قبل موقفه ذلك في البقعة المباركة، ولعله قد أسس لنبوته كياناً في المجتمع المستضعف عموماً وفي بني إسرائيل خصوصاً. لذلك فإن القرآن يقول: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا﴾<sup>(١)</sup>، ولم يصفه بأنه من قومه، كما صور الحقيقة أيضاً بقوله المجيد: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾<sup>(٢)</sup>. فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ قد كَوَّنَ ما يمكن وصفه تياراً لنشر دعوته، وإنما كانت عودته إلى مصر بمثابة إعلان عن ذلك التيار.

وعلى هذا فما أظهره عَلَيْهِ السَّلَامُ كان نوعاً من السؤال من ربه عن كيفية مجابهة هذه العقبة.

### بصائر وأحكام

يبدو أن النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يخش القتل، وإنما خاف على رسالته أن تضيع، ولعله سأل ربه كيف يواجه تهمة القتل حتى يبلغ رسالته.

(١) سورة القصص، آية ١٥.

(٢) سورة القصص، آية ٢٠.



## إني أخاف أن يكذبون

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿٣٤﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿وَأَخِي هَارُونُ﴾

كما طلب نبينا الأكرم ﷺ من ربه المتعال أن يؤيده بأmir المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام خليفة له وامتداداً لرسالته العظمى، كذلك كان موسى عليه السلام الخائف من انتقام آل فرعون وقتلهم إياه قد طلب من ربه المتعال أن يعين من تمتد رسالته به إذا هو ما قتل.. مما يشير إلى الأهمية القصوى لخلافة ووصاية كل نبي.

٢- ﴿رَبِّكَ فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾

لم يشر النبي موسى عليه السلام إلى أنه يعاني من عقدة في لسانه،

وإنما وصف أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾، وأن الرسالة بحاجة إلى مزيد من الدعم. وهكذا لم يطلب النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من ربه المتعال أن يعفيه من مهمة الذهاب إلى فرعون بسبب العقبات المتوقعة التي سيواجهها، وإنما طلب مزيداً من الدعم والحماية.

### ٣- ﴿إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾

لقد كان مستعداً لإبلاغ الرسالة، وإنما كان خائفاً عليها، فأراد نوعاً من التأييد ضماناً لنجاح مهمته.

وهكذا ينبغي لكل رسالي أن يسأل ربه لكي يعينه على أداء مهامه، بأن يزيده من تأييده بالحجج، وأن يقيض له من يعينه في مهمته.

## بصائر وأحكام

لم يطلب النبي موسى من ربه المتعال إعفاءه من مهمة الذهاب إلى فرعون، وإنما طلب مزيداً من التأييد والنصرة له لمواجهة ما قد تعترضه من عقبات. وهذا درس أساسي لكل رسالي.



## أنتما ومن اتبعكما الغالبون

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾ (٣٥).

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾

يبدو أن الأخوة التي كانت بين النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، لم تكن مجرد علاقة نسبية فقط، وإنما أخوة إيمانية متكاملة، وبذلك شد عضده به.

٢- ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا﴾

السلطان هنا ذلك البرهان الواضح، لأن الله تعالى لا يريد لعباده أن يُكروهوا على الدين، بل ليعرفوه حقاً ويؤمنوا به عبر الحقائق

التي يشاهدونها فيختاروه من دون إكراه.

ونستفيد من ذلك أن على الدعاة المخلصين ألا يفكروا بإجبار الناس أو إقناعهم بالطرق المادية، كالأغراء والإرهاب، وإنما عليهم أن ينهضوا بمنطقهم إلى أسمى قدر ممكن، مما يجتذب الناس ويجعلهم يلتفتون حولهم إلتفافاً واعياً ليرتقوا بهم إلى مستوى العقيدة الصالحة السليمة من كل أمت وعوج.

٣- ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمْ بِأَيِّتِنَا﴾

هذا ضمان لموسى وهارون عليهما السلام من الله تبارك وتعالى؛ أي إن الطغاة لن يمسوكم بسوء، وذلك بفضل هذا السلطان.

ولكن؛ هل إن هذا السلطان الضمان كان خاصاً بهذين النبيين الكريمين، أم أن عند الله تعالى ضماناً لكل من يدعو إليه؟ لا ريب في أن من يتوكل على الله تعالى توكلًا حقيقيًا، يكون جديرًا بنصر الله العظيم.

أما الآيات التي آتاها الله تعالى النبيين عليهما السلام، فهي اليد البيضاء وعصاه التي تحوّلت إلى ثعبان.

والآيات الربانية عموماً على ثلاث شعب: فمنها ما تُقرأ وتُسمع كنصوص التوراة والإنجيل والقرآن. ومنها ما تُرى وتُشاهد، وهي تجلياته في خليقته من الشمس والقمر والنجوم وما في الأرض مما دعا ربنا للنظر فيها والاعتبار بها، وكذلك الآيات المبصرة التي ظهرت على يد النبي موسى وسائر الأنبياء عليهم السلام. ومنها الآيات الناطقة والمتمثلة في أشخاص الأنبياء والأئمة عليهم السلام ومن أتبع نهجهم، فإنهم جميعاً بسلوهم الطيب وبحياتهم الفضلى وبعلمهم

وحكمتهم وتأييد الله لهم في أعمالهم، هم آيات ناطقة للرب سبحانه.

وعلى الناس إزاء هذه الآيات جميعها واجب الاستماع والاتباع والانتفاع بما تفيض عليهم من الهدى والحكمة والمعارف، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لخلاصهم من التيه والضلال والاضطهاد والظلم.

٤ - ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتَبَعَكُمْ أَغْلِبُونَ﴾

لا يخرج الناس عن طريقين لا ثالث لهما في الحياة، طريق الخسران وطريق الفلاح. وهذه هي سنة الله في الحياة. فمن اتبع آيات الله (الرسالات والرسول) كان من الغالبين، وإلا فإنه سائر في طريق الخسران.

### بصائر وأحكام

١ - لا يريد الله تعالى أن يُكرهه البشر على الدين. فعلى الدعاة أن يركزوا اهتمامهم بالبراهين البالغة، لكي يقنعوا الناس بالدين.

٢ - على الناس إزاء الآيات الربانية الاستماع والاتباع والانتفاع بما تفيض عليهم من الهدى والحكمة والمعارف، لأنه هو السبيل الوحيد لخلاصهم من التيه والضلال والاضطهاد والظلم.



## ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ ﴿٣٦﴾.

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيَّنَّتْ﴾

وجاء موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه مسلحاً بسلطانه العظيم وآياته الكبرى ليؤدي دوره مع أخيه هارون عليه السلام.

أما كيف تسنى له الدخول على الطاغية؟ فقد تعددت الأقوال، مما تعكس مدى معاناته الشديدة وإصراره.

٢- ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾

مع أن الآيات كانت بينات، إلا أن فرعون وملأه لم يكونوا ليستجيبوا لها انطلاقاً من ثقافتهم الفاسدة، فواجهوا الآيات بالتهمة

القائلة بأنها سحر مفترى. إنهم لم يكتفوا بوصفها سحراً، وإنما وسموها بالافتراء وأنها سحر معد بعناية، في إشارة منهم إلى أن موسى عليه السلام قد أعد عدته ومُنْهَجَ ما جاء به.

٣- ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾

من الركائز التي يعتمدها الطغاة في مواجهة الحق وأهله؛ ركيزة التعصب الاجتماعي، حيث تراهم يجهدون في تقديس التاريخ وما فيه ليجعلوا منه عقبة أمام مساعي التصحيح. ولأن الناس عادة لا يحبذون التجديد، فإن الطغاة يثيرون عواطف الرأي العام التي تميل إلى الاستقرار وتقديس الآباء، متغافلين عن أن ما في التاريخ ليس بالضرورة أن يكون كله صحيحاً.

وقد يُستخدم الشعور الديني في هذا المضمار، حيث إن كثيراً من أتباع الأديان يخلطون قيم الدين بحقائق التراث وما هنالك من التقاليد المتوارثة، غافلين عن أن الدين هو المقدس دون التراث.

ولا ريب في أن ما قاله فرعون لم يكن سوى كذبة فاضحة وتزوير للتاريخ المصري، ذلك لأن مصر ما قبل عهد فرعون كانت قد تنعمت بعقيدة توحيدية على يد النبي يوسف عليه السلام، فكأن فرعون يحاول أن يصور لمن كان بمحضره لدى محاكمة النبي موسى عليه السلام أنه وفكره يُمثّلان مصر بكل تاريخها.

## بصائر وأحكام

من الركائز التي يعتمدها الطغاة في مواجهة الحق؛ ركيزة

التاريخ والتعصب الأعمى لما في التراث ليجعلوا منها عقبة في طريق التصحيح. وهذه مشكلة عند تابعي الأديان، حيث يخلطون بين الدين والتراث.

بلى؛ الدين مقدس وثابت، ولكن التراث ليس مقدساً، ولا بد من تغييره وفق حاجات العصر.





## إنه لا يفلح الظالمون

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٣٧) .

\*\*\*

### من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّهُ ظَلَمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(١)</sup>.  
وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ظُلْمُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا، عُنْوَانُ شِقَائِهِ فِي الْآخِرَةِ»<sup>(٢)</sup>.  
وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الظُّلْمُ وَحَيْمُ الْعَاقِبَةِ»<sup>(٣)</sup>.  
وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «رَاكِبُ الظُّلْمِ يُدْرِكُهُ الْبَوَارُ»<sup>(٤)</sup>.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ١٤٧، حديث رقم ٢٦٨٥.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٤٥٧، حديث رقم ١٠٤٥٧.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٣٤٦، حديث رقم ٧٩٧٤.

## تفصيل القول

١ - ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾

لا ينبغي للإنسان أن يستهين بمعرفة الدين، فيتحذه لهواً ولعباً، ويعتبر كل ما في قلبه هدىً من الله، وقد يكون من وساوس نفسه والشيطان. فعلى الإنسان أن يبحث جدياً عن الدين، وليعرف حقائقه وحدوده معرفة يقين.

نعم؛ إن مسؤولية الهداية حبل متصل بين الإنسان وربّه تعالى؛ فلا يسع ابن آدم أن يغلق عينه ويشكو عدم رؤيته الضوء، ويتنظر أن يكرهه الله سبحانه عليه إكراهاً، كما لا يمكنه أيضاً أن ينتظر أنه بمجرد أن يفتح عينه سوف يرى نور الله بالضرورة.

بلى؛ إن رحمة الله لا تدع الإنسان غارقاً في الظلام إذا أراد الهدى. ومن هنا يتوجب عليه أن يتحمل مسؤوليته فيما يتعلق بالهداية، فيستبصر الدين بعقله ويفتش عنه بكل مساعيه ليأخذ الله تبارك وتعالى بيده إليه. ولذلك أشار النبي موسى عليه السلام لهذه الحقيقة العظمى، فقال: ﴿ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ ﴾ حيث إنه لم يختصر الهدى والحق بنفسه، لأن مراد ذلك قد يعود إلى هوى النفس. وإنما أوكل ذلك إلى الله تعالى إقراراً بفضلّه، وعرفاناً منه أن مقياس الحق والصدق هو علم الله وإرادته ورضاه.

٢ - ﴿ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ ﴾

كذلك علم الله هو المقياس لمعرفة الجهة الفائزة في الآخرة، بل وفي نهاية المطاف في الدنيا أيضاً. فلا يظن المرء في نفسه

الصلاحيّة للتشريع، ذلك لأن ابن آدم لم يخلقه الله مستقلاً عنه، وإنما هو دائم الحاجة إليه.

### ٣- ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

الظالم هو الذي يتجاوز الحق تجاه نفسه وتجاه غيره، والظلم لا يبلغ بالإنسان إلى السعادة التي يبتغيها الظالم بظلمه. وبهذا يكون موسى عليه السلام قد بيّن بعد عرضه للآيات البينات أن لديه ثلاث ركائز أساسية؛ الهدى وحسن العاقبة والفلاح. أما فرعون فيفتقر إليها جميعاً. وهذه الركائز التي لدى موسى عليه السلام متوفرة في سائر الأديان، وعند كل داع مخلص. إن هذه الآية تتناسب تماماً مع آية أخرى أجزاها الله تعالى على لسان النبي إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

الأمن من الضلال والشقاء، إنما هو لمن لم يلبس إيمانه بظلم، ذلك أن الظلم إذا دخل شيئاً أفسده واستلب منه جوهره وروحه؛ الأمر الذي نلمسه بوضوح وبشدة في العالم الحاضر، إذ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، الذين نسوا الله وظلموا، فأنساهم الله أنفسهم، وتركهم في ظلمات يعمهون.

## بصائر وأحكام

١- لا ينبغي للإنسان أن يستهين بمعرفة دينه، وإنما عليه أن يستبصره بعقله ويستعين بربه لمعرفة الهداية إليه، وعليه أن يتحمل

(١) سورة الأنعام، آية ٨٢.

..... | إنه لا يفلح الظالمون | .....

مسؤوليته فيما يتعلق بالهداية، وليعلم أن نور الهدى يشرق عليه من لدن ربه بفضله.

٢- الظلم هو تجاوز الحق تجاه النفس أو الغير، وعقابه الخيبة. ولكل داع ثلاث ركائز: الهدى وحسن العاقبة والفلاح، بينما الظالمون يفتقرون إليها جميعاً.

⏟



## فرعون: ما علمت لكم من إله غيري!

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ  
غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَنْهَمْدُنُ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي  
أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأظنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ ﴾

في البدء نشير إلى أن لموسى عليه السلام هيبة عظيمة في القصر الفرعوني مع أن رأسه كان مطلوباً لديهم. وهكذا نرى فرعون بكل طغيانه يضطر إلى محادثته، والسبب عائد إلى السلطان الذي آتاه الله لنبيه، ولولاه لكان قد قتله منذ أن وقعت عينه الظالمة عليه.

وقد كان فرعون يحاور النبي موسى عليه السلام بحنق بالغ، فلمّا رأى حجته قد دُحضت، غيّر وجهه الحديث وتوجه إلى ملئه الذين

..... | فرعون: ما علمت لكم من إله غيري! | .....

بدا عليهم الوجوم، وربما تأثر بعضهم بحجة موسى عليه السلام، فأراد فرعون أن يستعيد زمام المبادرة لعله يعيد إليهم شيئاً من المعنوية الضائعة، فقال لهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ﴾.

يبدو أنه ذكّرهم بأنهم كبار القوم ولا ينبغي أن ينهزموا أمام حجج النبي موسى عليه السلام.

٢- ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾

لم يكن فرعون مجرد حاكم ظالم، بل كان نهجاً فكرياً طاغياً. ومن هنا نراه يؤكّد لقومه بأنه قد جدّ في البحث لهم عن إله، إلا أنه لم يجد سوى نفسه لاثقاً بأن يكون لهم إلهاً. فكأن السماء قد انشقت ونزل هو منها عليهم، أو كأن دماء زرقاء تجري في شرايينه، وأن على الناس أن يجدوا تبعاً لإيحاءات كلمة إله في تبجيله وعبوديته. وهكذا حاول أن يشعرهم بأن مقامه أقدس من أن يمس.

وهذا هو بالضبط موقف الكثير من الحكام المستبدّين، الذين يحافظون على عروشهم بأية صورة.

٣- ﴿فَأَجْعَلِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾

يحاول فرعون هنا الإيحاء لملئه بأن الرب الذي يدعو إليه النبي موسى عليه السلام هو رب يخصه، وليس كما قال موسى عليه السلام: إنه رب العالمين. وبالتالي فإن مقام الربوبية يمكن المساومة عليه، ولم يعرف بأنها أعظم القضايا التي تتصل بمصير كل الخلائق.

ومما نفهمه عبر التدبر في هذا النص، أن هذا الحاكم شأنه شأن كل عبّاد السلطة كان يعاني من مركب النقص في شخصيته، ويشعر بالذل والمهانة في نفسه، ولهذا تراه متهاكاً في تغطية هوان

ذاته ببعض مظاهر العظمة كبناء صرح عالٍ، فأمسى يخادع نفسه وشعبه، ويحاول إقناعهم بضلالاته.

٤ - ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾

في البدء نفى فرعون أن يكون ثمَّ إله غيره، ثم بفعل البراهين الواضحة والآيات البيّنات وبفعل ما افتضح من هلامية مقامه الظالم والكاذب.. عاد فقال: أظن. وإنما التجأ فرعون إلى اعتماد الظن، اعترافاً منه بالعجز في مواجهة حجج النبي موسى ﷺ.

### بصائر وأحكام

عندما عجز فرعون عن مواجهة سلطان النبي موسى ﷺ، حاول تعبئة حاشيته وخاطبهم بالمأثرة كبرهم، ثم جعل الصراع كأنه شخصي بينه وبين إله موسى، وأمر ببناء صرح ليخفي مهانة نفسه، كل ذلك شأن جبابرة التاريخ جميعاً.



## وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون

﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٣٩)

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «فَمَنْ اسْتَكْبَرَ  
أَدْبَرَ عَنِ الْحَقِّ»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الأعلى بن أعين قال: «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَعْظَمَ الْكِبْرِ غَمْصُ الْخَلْقِ وَسَفَهُ الْحَقِّ.  
قَالَ: قُلْتُ: مَا غَمْصُ الْخَلْقِ وَسَفَهُ الْحَقِّ؟ قَالَ: يَجْهَلُ الْحَقَّ وَيَطْعُنُ  
عَلَى أَهْلِهِ؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ نَارَ عِزِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رِدَاءَهُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣١٠.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أحذر الكبر، فإنَّهُ رأس الطغيانِ ومَعْصِيَةِ الرَّحْمَنِ»<sup>(١)</sup>.

## تفصيل القول

١ - ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾

الاستكبار هو التعالي على الحق، والتعالي على الحق قد يكون بالعقيدة والسلوك معاً، وقد يكون بالسلوك وحده، حيث إن ما لا يؤديه من الحق يعتبر نوعاً من الكبر.

والمتكبر على الحق يتحول شيئاً فشيئاً إلى مفسد في الأرض، حيث إنه باستكباره ينحرف عن الحق، ويمنع الآخرين عن العمل به. قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْأَخْرَىٰ بُجِعَ لَهَا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾<sup>(٢)</sup>.

ونتساءل: كيف أن المتكبر يغتدي مفسداً؟

بما أن إنكار الحق إنما هو نتيجة التعالي عليه، فإنه يدعو المتكبر إلى محاولة منع غيره عن ممارسة الحق باستلاب حقوقهم ومصادرة صلاحياتهم ومواجهتهم عند المطالبة بها. وهكذا يتحول إلى عنصر فساد.

وهذا التعالي على الناس متنوع، فقد يكون باستغلال المال أو السلطة أو العلم أو حتى الدين.

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، الشيخ الأمدي، ص ٣٠٩، حديث رقم ٧١٢٢.

(٢) سورة القصص، آية ٨٣.

ويبقى سؤال: هذا فرعون رأس هرم النظام الفاسد استكبر، فكيف استكبر جنوده؟

بلى؛ لقد شاركه جنوده في جريمته، لأنهم هم الذين مكّنه من رقاب الناس، فأعانوه وحاربوا دونه. ومن هنا نعرف أن مواجهة الاستكبار ليست مواجهة شخصية بين النبي والحاكم الظالم، بل هي مواجهة تيار لتيار.

لقد كان استكبار فرعون وجنوده في الأرض، حتى ظهر فسادهم في كل أطرافها التي حكموها.

بلى؛ إذا فسد السلطان، فسد الزمان.

ونستطيع أن نستفيد من هذه الآية أن الحق هو المعيار، وأنه الحد الفاصل بين الاستكبار وعدمه. فمن أسلم نفسه للحق تجاوز البغي واتقى في نفسه الاستكبار؛ ومن لم يسلم نفسه للحق سقط في هاوية الاستكبار.

أما ورود الألف واللام في كلمة الحق، فلعله إشارة إلى أن الإيمان هو التسليم للحق كله دون تمييز بين حق وآخر.

## ٢- ﴿وَضَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّا لَا يَرْجِعُونَ﴾

إن من أهم أسباب الاستكبار في الأرض، هو الغفلة عن الآخرة. إذ لو آمن الفرد بالعدالة التي تتجلى في يوم الدين، وعرف أن الناس صائرون إلى ساحة جزائهم، لما سقطوا في هاوية الظلم والاستكبار.

وهكذا فإن القضاء على مرض الاستكبار يكمن في تدكُّر الآخرة، إلا أن من يظن أن لا رجعة له إلى خالقه، فإنه يعيش لندياه

فحسب، ومن يعيش لندياه تراه يزداد ظلماً واستكباراً على غيره، حيث لا رادع يمنعه عن التماذي.. وظنه بعدم الرجعة إلى الله القدير إنما هو توهم باطل؛ إذ العلم قرين ولصيق بالتوحيد والعدل والمعاد، فيما الظن قرين الوهم والغفلة والانحراف.

### بصائر وأحكام

إن إنكار الحق هو نتيجة التعالي عليه، فإنه يدعو الفرد إلى الفساد في الأرض؛ لأنه يستلب حقوق الناس ويصادر ما لديهم من صلاحيات وإمكانات، ويواجه مطالبتهم بها، مما يثير الفساد في الأرض. وإذا فسد السلطان فسد كل مكان، ولم يخل موقع من آثار فساد.



## فانظر كيف كان عاقبة الظالمين

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ  
كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

\*\*\*

### من الحديث

روي عن الأئمة المعصومين عليهم السلام فيما وَعَظَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ  
عِيسَى عليه السلام فِي حَدِيثٍ: «يَا عِيسَى؛ اَعْقِلْ وَتَفَكَّرْ وَأَنْظُرْ فِي نَوَاحِي  
الْأَرْضِ، كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١- ﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ، فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾

هل انتهى فرعون وُئِدَ في البحر لمجرد أن اسمه كان فرعون،

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٨، ص ١٤٠.

أم لأنه كان ينتمي لطائفة الأقباط، أم لأنه كان يعيش في مصر؟  
كلًا؛ المنطق القرآني لا يُشير إلى هذا وذلك، وإنما أُبيد وجنوده  
وُبذوا في البحر لأنهم كانوا شرذمة ظالمة حاربت الله عز وجل في ربوبيته،  
وتجاوزت الخطوط الحمراء، وانسلخت عن السنن الإلهية، وتجردت عن  
فطرتها الإنسانية، فأصبحت كالنار تأكل الأخضر واليابس. ولا ريب في أن  
غير فرعون محكوم بالمصير ذاته إذا ما انتهج نهجه وسار في أثره.

إن فرعون وجنوده لم يُبذوا في البحر بلا سبب، وإنما بما كسبت  
أيديهم. فلا يحق لهم كما لا يحق لغيرهم أن يبرروا أخطاءهم، أو يبحثوا  
عن معاذير لأنفسهم، لأن الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.

كما لا يحق لجنود فرعون أن يتهربوا من مسؤوليتهم عن  
الظلم، لما قاموا به من دعم إمامهم الذي ساقهم إلى الدمار في الدنيا  
والنار في الآخرة، لأنهم استسلموا لإرادته الظالمة وأعانوه في غيّه.

والتعبير بالنبذ، يعكس منتهى المهانة لهم، كما تُنبذ القمامة. أما  
العقاب بالإغراق، فهو غاية العقاب، حيث يموت الغريق بالتدرج،  
ولعل وفاته تستغرق فترة ليست بالقصيرة، مما يتسبب بمضاعفة الألم له.

والأغرب من هذا أن المعاقب بالإغراق من الكافرين والظلمة  
كفرعون وجنوده، يجد نفسه بعد مئة السوء هذه في النار؛ إنها منتهى  
العذاب، نستجير بالله من سوء العاقبة.

## ٢- ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾

معلوم أن الأمر بالنظر ليس بهدف التفرج، ولا حتى الإبصار  
المجرد عن الاعتبار. أوليست العين تنظر، ولا حاجة للأمر بذلك؟ إنما  
النظر هنا نافذة للعقل على الواقع، لكي نعتبر بما في التاريخ من عبر،

ولكي نعرف المواقف التي تؤدي إلى سقوط الجماعات البشرية ودمار ما يسمى بالحضارات التي سادت ردهاً من الزمن ثم بادت، لماذا بادت؟ ولأهمية هذا الأمر في رسم خارطة الطريق لحياة الإنسان، نلاحظ كيف تكرر الأمر به في القرآن الكريم.

بلى؛ إن ذكر القصص في القرآن إنما هو بهدف تجنب السقوط في الهاوية بعد التعرض للغضب الإلهي.

بلى؛ النظر الثاقب في التاريخ يجعلنا نستوعب تجربة الأولين، كما نعرف حقاً مصير الظلم والظالمين، فيكون ذلك مدعاةً لنا إلى تجنبه وتجنبهم، وبالتالي إلى السير في طريق مستقيم، لا يؤدي بنا إلى عاقبتهم السوأى.

ومن صيغة الجمع في (الظالمين) نعرف أن المشكلة تتمثل في الإرادة الجمعية في ممارسة الظلم، مما يعني أن النظام كان قائماً على أساس الظلم، ولم يختص به فرعون وحده. وهكذا نعرف أن القيم الإلهية هي أساس حياة مطمئنة وآمنة، وأن مجانية هذه القيم تنتهي إلى الانتقام الإلهي الصاعق.

## بصائر وأحكام

إن النظام القائم على الظلم، والذي يجانب القيم الإلهية يؤدي إلى الهلاك، وعلينا تبصّر عبر التاريخ بالنظر الثاقب إلى مصير الظالمين، لكي نتجنب الظلم والظالمين، ونبني حياتنا على القيم التي تورثها الطمأنينة والسلام.



## أئمة يدعون إلى النار

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «الأئمة في كتاب الله إمامان؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾<sup>(١)</sup> لا بأمر الناس يُقدّمون أمر الله قبل أمرهم، وحكم الله قبل حكمهم. وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئمةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ﴾، يُقدّمون أمرهم قبل أمر الله، وحكمهم قبل حكم الله، ويأخذون بأهوائهم خلافاً لما في كتاب الله»<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة الأنبياء، آية ٧٣.

(٢) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار، ص ٥٢.

## تفصيل القول

١ - ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ﴾

واضح أن الله تعالى يجعل بفضلته وعبر اصطفائه أئمة في الخير، لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون. ولكن كيف جعل الله بعض الناس أئمة في الشر يدعون إلى النار؟ هل أن الله سبحانه وتعالى يركس هؤلاء في الضلال وفعل السيئات إلى الحد الذي يصبحون قدوات في الشر؟

دعنا نتوقف عند هذه الآية لما فيها من البصائر.

من ذلك؛ أن ثواب العبد الصالح أن يجعله الله إماماً في الصلاح، كما أن عقاب الفرد الطالح أن يجعله الله إماماً في الشر، فتراه يدعو إلى النار؛ إنه يدعو إلى الرذيلة وهي في النار، وإلى البدع وهي في النار، ويدعو إلى عبادة الشيطان وهو من أصحاب النار، وهكذا..

ومعلوم أن مثل هؤلاء يمدهم الله عز وجل في الطغيان، ويسلبهم نوره. هذا مع أن الله هو أرحم الراحمين، ولكنه لا ينقذ من يختار الشقاء على السعادة والنار على الجنة. فمع كونه سبحانه أرحم الراحمين، إلا أنه أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة.

ثم إن فرعون قد انتهى كفره، ولكنه بقي كنهج شرير هو وجنده ليكون عبرة للأجيال. كما أن نهج الأنبياء والأوصياء راسخ في قلوب الصالحين. وقد ورد عن مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «الْعِلْمُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَالِ بِسَبْعَةِ الْأَوَّلِ: أَنَّهُ مِيرَاثُ

الأنبياء، وَالْمَالِ مِيرَاثُ الْفِرَاعِنَةِ»<sup>(١)</sup>.

وهكذا كلُّ يرث من إمامه ما يورثه من علم أو مال.

وفي يوم القيامة حين يُدعى كلُّ أناسٍ بإمامهم، سوف يُساق أتباع الفراعنة إلى النار تحت رايتهن المقبوحة، لينالوا جزاءهم الأوفى.

٢- ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾

فلا أحد يشفع لهم، كما يشفع أئمة الهدى لأتباعهم.

### بصائر وأحكام

لقد انتهى فرعون وجنوده كبشر، وبقي نهجهم وعاقبتهم عبرة لمن شاء أن يتذكر كيف نبذهم الرب في الدنيا ليغرقوا ثم يدخلوا النار، وكيف أنه ليس لهم في الآخرة من شفيع أو نصير.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ١، ص ١٨٥



## هم من المقبوحين

﴿ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ  
مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ (٤٢)

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي  
لَبَسَ الْعِزَّ وَالْكَبْرِيَاءَ، وَاخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ، وَجَعَلَهُمَا حِمَى  
وَحَرَمًا عَلَى غَيْرِهِ، وَاصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ، وَجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَارَعَهُ  
فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

أساس اللعنة البُعد عن رحمة الله تبارك وتعالى. ومن العقاب

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢.

الذي حكم به الله على فرعون وجنوده أن جعلهم مبعدين عن رحمته وبركته، وبالتالي فإن جميع المخلوقات ستتناغم مع هذا الحكم الإلهي. لقد أتبعهم الله باللعنة في الدنيا لما ظلموا واستكبروا وطغوا في الأرض.

أما في القيامة وعند الحساب، فيُحشرون مع المقبوحين، وهم الذين يستقبحهم أهل المحشر جميعاً؛ أي إنهم سيكونون موضع نفور وتنفّر يومئذٍ كما هم لُعنوا في الدنيا، ولم يعودوا موضع حب أو احترام من قبل الأجيال التالية. وإذا كان الإنسان يبحث عن الذكر الحسن في الدارين، فإن للظالم أقبح الذكر؛ فهو في الدنيا لعنة، وفي الآخرة مقبوح.

### بصائر وأحكام

إذا كان مصير الظالم في الدنيا لعنة، وفي القيامة يُحشر مع المقبوحين، فإن تلك هي العاقبة السوأى التي ينبغي للإنسان أن يتجنبها.



## لعلهم يتذكرون

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ، قال: «مَا أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمًا وَلَا قَرْنًا وَلَا أُمَّةً وَلَا أَهْلَ قَرْيَةٍ بِعَذَابٍ مِنَ السَّمَاءِ مُنْذُ أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ، غَيْرَ أَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي مُسِّخُوا قِرْدَةً. أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ قَالَ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٧، ص ٤٤٢.

## تفصيل القول

١ - ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾

لن ينفع سقوط الفراعنة عن كرسي السلطة، إن لم يرتفع الناس إلى مستوى الاستغناء عنهم والاستقلال في إدارة شؤونهم، وكيف يمكن أن يتحقق ذلك من دون كتاب (دستور ونظام) يحكمهم ويرجعون إليه عند الاختلاف وفي مواطن الحيرة؟

وهكذا نرى الآيات تذكّرنا بدور الكتاب الذي آتاه الرب تعالى النبي موسى عليه السلام بعد هلاك القرون الأولى (والأجيال السابقة)، وللكتاب هذا، ولأي دين ورسالة، غايات:

أولاً: تبصير الناس بالحقائق ليعرفوا ربهم بآياته وأسمائه، ويعرفوا أنفسهم بما يملكون من مواهب الرحمن، وما يحتاجون إليه من الشرائع، ويتعارفوا فيما بينهم.

وبالتالي الغاية السامية للرسالة الإلهية إخراج الناس من ظلمات الجهالة والغفلات والشهوات إلى نور العقل والعلم والإيمان.

ثانياً: هداية الناس إلى الصراط المستقيم، الذي يرسم لهم خارطة شاملة لحياتهم، وما في الكتاب من أصول الشريعة (الأمر بالقسط، والنهي عن البغي والفحشاء، والتوصية بالخلق الرفيع والآداب السامية) كل أولئك بمثابة ما عند الناس من دساتير فيها رسم خارطة طريق لحياتهم.

ثالثاً: وعندما يتبصّر الناس الحقائق، ويؤمنون بما يجب أن يؤمنوا به، وعندما يعملون بالهدى وبما فيه من شرائع وأنظمة، تشملهم

الرحمة الخاصة من ربهم. ولعل الرحمة هنا تلك الأحكام التفصيلية،  
والوصايا التكميلية، والتعاليم التي تتناول الآداب والأخلاق التي  
تحيط بكل جوانب حياتهم، وفيها ما يصلح أمورهم ويوفر لهم الفلاح.

## ٢- ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

كل ما في الرسالة الإلهية من بصائر وهدى ورحمة، وكل ما توفره  
الرسالات السماوية من حياة آمنة وسعيدة، تمهّد لسمو النفس البشرية إلى  
درجة التذكرة، التي هي تفعيل ما في عقولهم من معارف، وما في ضمائرهم  
من تطلعات، وأبرزها بلوغ مستوى الإيمان إلى درجة اليقين، ومستوى  
الشخصية إلى الخلق العظيم، ومستوى سلوكهم إلى ذروة الصلاح.

صحيح أن الإنسان يعيش في الدنيا بلحمه ودمه، ولكنه ليس  
ابنها، ولم يُخلق لها، إنما هو ابن الآخرة، وقد خُلِقَ للجنة حيث  
الرحمة التامة.

وعبر التذكُّر، وعبر إثارة العقل لظهور كوامنه وبلورة الضمير،  
تتجلى ملكاته السامية ويبلغ البشر درجات الآخرة بفضل الله تعالى.

## بصائر وأحكام

الخلاص من فراعنة الأرض، يمهد السبيل لبناء حياة فاضلة،  
بما توفر لها رسالات الله من بصائر لمعرفة الحقائق والإيمان بها،  
ومن هدى إلى الصراط المستقيم، ومن رحمة تستنزله تفاصيل أحكام  
الشرعية، وبالتالي إلى التذكرة والتسامي إلى حيث رضوان الله وجنانه.



## ما كنت من الشاهدين

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ .

\*\*\*

### تفصيل القول

١- ﴿وَمَا كُنْتَ﴾

لماذا تكررت هذه الكلمة في هذه الآية والآيتين التاليتين أربع مرات، تأكيداً على أن النبي الأكرم ﷺ لم يك حاضراً في مواطن قصة النبي موسى ﷺ، أو لم يكن معلوماً سبق ذلك الزمن على عهد النبي الأعظم ﷺ؟

لعل الحكمة؛ أولاً: تأكيد أن ما في الكتاب وحي من عند الرب، وليس من ذات النبي ﷺ. ولولا أنه من عنده تعالى، كيف تم فيه توصيف أدق التفاصيل عما جرى في السابقين، حتى عما

خطر في أنفسهم من هو اجس؟

وثانياً: منع سقوط البعض في شرك الشرك بالله، واعتبار الأنبياء أنصاف آلهة سبحانه الله وتعالى. وذلك لأن علينا أن نتخذ طريقاً وسطاً فيما يتصل بعلاقتنا مع الرسل. كيف ذلك؟  
تبياناً للأمر نقول:

هذه الدنيا هي دار وسائل؛ منها المعنوية ومنها المادية، ولا بد أن نتخذها لتحقيق الأهداف المرسومة لنا من قبل ربنا سبحانه. فإذا تركنا التوسل بها أخطأنا، وإذا جمدنا عليها، أشركنا بالله عز وجل ووقعنا في الضلال البعيد، فكان لا بد من اتخاذ طريق وسط، وذلك بأن نعرف أن الوسائل وسائط، وأن الأمر كله بيد الله تعالى. أما الذين يتجاهلون الوسائل ويحاولون القفز عليها، فإنهم لن يحققوا شيئاً من أهدافهم، لأنهم يواجهون سنة الله في خلقه، والتي تقضي باتخاذ الوسائل، وبالذات المعنوية منها مثل الأنبياء والأئمة والصالحين والصادقين باعتبارهم أدلاء إلى معرفة الرب المتعال ووسائل إلى رضوانه. ولكن من جهة أخرى إنه من الخطأ القاتل اعتبار هذه الوسائل مستقلة عن إرادة الله تعالى، فإنه شرك وضلال.

إننا نعوذ بالرسول ﷺ، باعتباره مرضياً عند الله تعالى، ونتوسل إلى الله به وبأهل بيته عليه وعليهم صلوات الله، باعتبارهم وسائل، وقد قال ربنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>. فلا نقع لدى ذلك في مطب عبادة غير الله.

(١) سورة المائدة، آية ٣٥.

٢- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ﴾

لم يكن النبي ولكن الله كان، وهو الذي يوحى إليه، كما لجميع الأنبياء ﷺ.

٣- ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ﴾

لعل الأمر هنا هو البعث بالرسالة، لأنه كان لحظة حاسمة في حياة البشر، وفي هذا دلالة على أن الرسالة ليست حالة تكاملية في مسيرة الإنسان، كما يتكامل عالمٌ تتراكم عنده المعارف والتجارب حتى يصبح عبقرياً.

كلاً؛ بل إنها من عالم الأمر، حيث الخلق المباشر من عند الله سبحانه، والجعل المستقيم الذي لا يمر بمراحل الخلق، ولا بسنن الرب في المخلوقات.

٤- ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

وكذلك نعرف أن الرسالة وحي الله تعالى إلى نبينا ﷺ الذي بدوره لم يدع أنه من نفسه، ولا كونها من عمله، والدليل على ذلك أنه لم يكن هناك عندما بعث الله النبي موسى ﷺ، ولم يتحدث عن تفاصيلها، إنما الوحي الإلهي المباشر هو الذي تكفل بذلك. ونعرف من ذلك أيضاً أن الرسالة هي ذاتها، سواءً التي نزلت على النبي موسى أو على نبينا ﷺ.

بصائر وأحكام

١ - سنة الحياة تقضي باتخاذ الأنبياء والأئمة والصالحين

والصادقين قدوات ووسائل إلى معرفة الرب المتعال وكسب رضوانه، ومن الخطأ اعتبار الوسيلة مستقلة عن إرادة الله تعالى. وهذا هو السبيل الوسط الذي ينبغي أن نسلكه في معرفة الأنبياء عليهم السلام، فليسوا أنصاف آلهة، ولا يجوز تجاوزهم.

٢- الرسالة تتصل بعالم الأمر وليس بعالم الخلق. فالرسول ليس عبقرياً، بما تراكمت لديه من تجارب أو اكتسبها من معارف، وليس ما لديه إلا وحيّاً مباشراً من عند ربه سبحانه.





## ولكننا كنا مرسلين

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا فِرْعَوْنَ فَطَّوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ  
ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتَلَوُا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا  
مُرْسَلِينَ﴾



## تفصيل القول

١- ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا فِرْعَوْنَ﴾

لماذا نرى الحضارات البشرية تنشأ ثم تنمو وتشيخ وتتلاشى؟  
لأنها متصلة بالبشر، وتشبه دورات حياتها دورات حياة  
الإنسان الذي كلما عمّره الله نكّسه. كما أن البشر يشبّ ويمتلئ  
بالعنفوان والطموح، ثم يكتمل شيئاً فشيئاً حتى يتسافل، فإذا طاقاته  
قد تبخّرت، كذلك الحضارات التي هي خلاصة حياة أمة من الناس.

ذلك لأن الله تعالى خلق السماوات والأرض بمن فيهما وبما فيهما بأمرين أساسيين؛ هما الحق والأجل المسمى، فكان لكل شيء أجل. فلا يصح لمخلوق أن يفكر بأنه سيعيش إلى الأبد، لأن القضاء الإلهي قد قضى بفناء كل شيء سوى وجه الله ذي الجلال والإكرام. وبطبيعة الأمر فإن لكل حضارة معدلاً من العمر في الحياة العادية كما هو للإنسان، فإذا بلغت أجلها آل أمرها إلى الزوال، وشمسها إلى المغيب. ولعله إلى ذلك تشير الآية الكريمة.

## ٢- ﴿فَنَطَّأَوْا عَلَيْهِمُ الْعُمُرَ﴾

بلى؛ لقد توالى عليهم قرونٌ من الزمن، كل جيل وورث جيلاً من قبله، ثم أورث مكاسبه الأجيال من بعده، حتى تمددوا على شاطئ الزمن، وطال بهم أمد العمر، فقسفت قلوبهم ولم يعودوا يتفاعلون كثيراً مع مؤشرات الرسالات الإلهية التي نزلت فيهم، وكأنهم قد تعودوا عليها، حتى أنهم حسبوها من ذواتهم، فإذا بهم قد تجرؤوا على التحريف فيها وتفسيرها بما يحقق مصالحهم. ولكن بما أن الله تعالى كان أرحم بهم من أنفسهم، فتفضل عليهم بإرسال من يذكرهم بالآيات، ويجدد عهدهم بالرسالات ليذكروهم بنعم ربهم التي تناسوها، وبضماثرهم التي رانت ذنوبهم عليها، ولعقولهم التي دُفنت تحت ركام الثقافات الباطلة.. كذلك كانت رحمة الله بهم.

## ٣- ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾

منطقة مدين تقع عند نقطة رابطة بين الشام والجزيرة العربية ومصر، وليست ببعيدة عن أرض السواد. فهي نقطة إستراتيجية

تتناسب والحكمة من بعثة المزيد من الأنبياء والمرسلين فيها، ومنهم كان النبي شعيب عليه السلام الذي تولى احتضان النبي موسى عليه السلام وحمايته. ومن خلال هذه المنطقة كان الأنبياء ينتشرون في جهات الأرض وبقاعها، وذلك بعد أن يتناول بأهلها العمر، ليحدثوا فيهم الهزات الوجدانية، ويعرّضوهم للصعقات بالإنذار والتبشير لعلهم يعودوا إلى رشدهم بعد ما تعرضت لهم من غفلات.

٤ - ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

وهكذا كان إرسال الأنبياء رحمة من الله تعالى بهم، كما بعث إلى هذه الأمة النبي الأعظم ﷺ بعد فترة من الرسل. وهذه السنة تتجدد، فلا يظن ظان بأن الدين سيموت في يوم من الأيام إذا هو لم يؤيده وينصره. فالدين محفوظ بحفظ الله، ولكن على من يريد رضوان ربه أن يدعوه ليوافقه لخدمة الدين، لأن الشرف الأعظم كامن في هذه الخدمة.

### بصائر وأحكام

ليس أحد من البشر ولكن ربهم سبحانه الذي يرسل الأنبياء ويواتر بهم الإنذار بعد أن يتناول عليهم العمر، لكي يذكرّوهم منسي نعمته، ويجددوا عهدهم بربهم.

وهكذا الدين محفوظ وإلى الأبد، ومن يريد ربه فليجأ إليه حتى يجعله داعياً إليه، فإن خدمته شرف عظيم.



## رحمة من ربك

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾ .

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي سعيد المدائني، « قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ ؟ قَالَ: كِتَابٌ كَتَبَهُ اللَّهُ يَا أَبَا سَعِيدٍ فِي وَرَقَةٍ آسَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ بِالْفِيْ عَامٍ، ثُمَّ صَيَّرَهَا فِي عَرْشِهِ أَوْ تَحْتَ عَرْشِهِ، فِيهَا: يَا شَيْعَةَ آلِ مُحَمَّدٍ، قَدْ أُعْطِيْتُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُونِي، وَغَفَرْتُ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ تَسْتَغْفِرُونِي، وَمَنْ أَتَانِي مِنْكُمْ بِوَلَايَةِ مُحَمَّدٍ وَآلِهِ أَسَكَّنْتُهُ جَنَّتِي بِرَحْمَتِي »<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير الكوفي، الشيخ فرات بن إبراهيم الكوفي، ص ٣١٦.

## تفصيل القول

١- ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾

مع أنك يا رسول الله لست بدعاً من الرسل، ومع أنك خاتمهم وسيدهم، إلا أنك لم تكن بجانب الطور حين نادينا موسى، فتحدث قومك بتفاصيل ما وقع، إلا أن نعرفك بذلك ونقص عليك.

ولعل هذا التعبير جاء من أجل بيان أهمية الموقف، ذلك لأن تنزل الوحي من عند رب السماوات والأرض على بشرٍ أمرٍ عظيمٍ للغاية، وعلى الإنسان أن يستوعب هذه الحقيقة الهامة بما تستحق من إهتمام وإيمان، لكي يتسامى إلى مستوى من الإيمان يؤهله للتعامل مع الغيب.

٢- ﴿وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾

إنّ ما يقصّه ربنا لرسوله ﷺ من قصص الأنبياء، فيض من الرحمة الإلهية التي تمثلها الرسالة، وفيها المزيد من الموعظة البالغة للمؤمنين.

وهكذا فإن ذكر تفاصيل عن الرسالات الإلهية السابقة، وعن الأمم وكيف كانت عاقبتها حينما كفرت بها، إنها نعم النذير لهذه الأمة.

٣- (لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ)

بالرغم من أن البشر مهتمون أبداً بتاريخهم، لمعرفة ما جرى على الأولين من حوادث، إلا أنها لا تعكس في الأغلب عبرها الناطقة بالحق، بل وقد تكون مشوبة بكثير من الزيف، بحيث يكون أثرها سلبياً. وهكذا فإن ذكر الكتاب لتلك الحوادث، وبتلك الكلمات البالغة الدقة والبالغة التأثير، ومن ثم التذكرة بما فيها من عبر تضيء

الدرب لمن شاء هدى.. إن كل ذلك رحمة واسعة.

ونتساءل: لماذا لم يذكر التبشير مع الإنذار؟

يبدو أن الإنذار أهم من التبشير، لأن انجذاب الإنسان إلى درء الخطر أقرب من تفاعله مع تحصيل النفع.

٤- ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

معلوم أن كلمة (لعل) في كتاب ربنا لا تعني الترجي المجرد عن الإخبار بوقوع ما بعده، بل الترجي هنا مقرون بحقيقة أن السنن الإلهية تقتضي وقوع ما يُرجى، إلا أنه ليس حتماً، لأن إرادة الإنسان الحرة تمنع من توقع طريقته في التصرف، كما أن مشيئة الرب سبحانه دائماً فوق السنن الحاكمة.

بلى؛ على الناس أن يتذكروا ويستحضروا ما جعله الله تعالى في فطرتهم من حقائق الإيمان ودواعي التصديق بالرسالة، وذلك بأن يستفيدوا من فكرهم بنزاهة وإنصاف ليصدقوا بما جاء به المرسلون.

## بصائر وأحكام

١- من تجليات الرحمة الربانية أن يقوم رسول الله ﷺ بإنذار الناس ويذكرهم بالمرسلين السابقين، فيستلهموا من سيرتهم العبر والمواعظ.

٢- إن تبصّر عبر التاريخ ليس بتلك السهولة، لأن الحوادث التي سبقتنا عبثت بها يد التزييف والتحريف. ومن هنا فإن ما في الكتاب المنزّل من ذكر قصص الأنبياء ﷺ وعقبى الأمم، يوفر لنا فرصة فريدة للاعتبار والتذكر لنقائنها من كل زيف أو زيادة أو نقصان.



## لولا أن تصيبهم مصيبة

﴿لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿لَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْأَوَّلِينَ هِيَ سُنَّتُهُ فِي الْآخِرِينَ، وَسُنَّتُهُ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ هِيَ سُنَّتُهُ فِي صِغَائِرِهَا. وَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ تَدْعُونَا وَتَدْفَعُنَا إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْإِعْتِبَارِ، لِأَنَّهَا تُوَفِّرُ لَنَا فُرْصَةَ الْإِتْعَازِ بِكُلِّ مَا فِي التَّارِيخِ مِنْ حَوَادِثِ عِظَامٍ.

وَمِنْ سُنَّتِهِ تَعَالَى أَنَّهُ يُوقِفُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَوْضِعِ الْخَطَرِ، وَيُنْذِرُهُ بِمَا قَدْ يَصِيبُهُ بِالذَّاتِ عِنْدَمَا يَتَسَافَلُ الْمَجْتَمَعُ وَيَشْرَفُ عَلَى

الوقوع في الهاوية، بالذات عندما يضيع الصلاة ويتبع الشهوات وينفض من حول القيادة الصالحة، فتزداد لديه عوامل الضعف، كل ذلك بما كسبت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد. وحينئذ إذا وقعت عليه مصيبة بعد الإنذار، تمت عليه الحجة، ولا يحق له أن يعترض على ربه لأنه لم يرسل إليه رسولا منذرا.

٢- ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾

ولا ريب أن الرسول لا يأتي من تلقاء نفسه، ولا يرسل خالي اليد، وإنما تتجلى على يديه الآيات البينات، ولذلك تراهم يقولون:

٣- ﴿فَنَبِّئْ عَائِلَتِكَ وَنَكُوتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

لكي يواجه الإنسان النوائب التي تترى عليه، يعبئ كل طاقاته الفكرية والجسدية، ويتجاوز الأوهام والتمنيات، ويتعامل مع الحقائق مباشرة ومن دون حجاب. لذلك فهو يتمنى لو أنزل الله عليه رسالته وبصره بآياته حتى يتبعها ويكون من المؤمنين.

وهكذا يبدو أن الآية تشير إلى نوع من العهد يقدمه الإنسان لدى دعائه إلى الله سبحانه وتعالى يعرب به عن عزمه على إتباع الرسول وآياته ليواجه النائبة التي ألمت به، أو يحول دون وقوعها ويكون من المؤمنين المصدقين. وفي هذا إيحاء بأن الفرد عليه أن يعرف الآيات ثم يتبعها، فإذا اتبعها صار من المؤمنين. وهكذا الإيمان ليس مجرد رغبة أو تمني.

ونستلهم من قولهم: ﴿وَنَكُوتَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأنهم عرفوا أن هناك قوماً قد استغاثوا بالله ليخلصهم من العذاب، فنزلت عليهم الآيات وبعث فيهم الرسول، وأنجاهم الله بها.

## بصائر وأحكام

من أبعاد الرحمة الإلهية بالإنسان أن الله سبحانه يوقفه على مواطن ضعفه، ويتجلّى له عن نوره، ليرى حقيقة الإيمان مشاهدة ومن دون حجاب. وذلك عندما يحدق به الخطر، الذي لا يحيط به إلا عندما يتسافل ويضيع الصلاة ويتبع الشهوات وينفضّ من حول القيادة الإلهية، فتتكاثر فيه أسباب الضعف التي لم تتراكم عليه بلا سبب، بل بما كسبت يدها، وما ربك بظلام للعبيد.



## فلما جاءهم الحق

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ لَّوْنٌ ﴿٤٨﴾﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١ - ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾

المشكلة الكبيرة التي يقع فيها بعض الناس أنهم إذا أحسوا بمرارة المصائب جأروا إلى الله تعالى ليتقدهم منها، بأن يرسل لهم رسولا بآيات بينات. ولكن إذا أتاهم الحق الرسول والرسالة من عند الله مباشرة تراهم قد نكصوا على أعقابهم، وتجاهلوا دعواهم، وتستروا وراء الحجب التي تراكت عليهم وأعمت أبصارهم.

وها قد بعث الله تبارك وتعالى إليهم الأعظم بين الرسل، وهو

النبي محمد ﷺ الذي تمثل فيه الكمال كله، ولكن انظر إليهم ماذا قالوا؟

٢- ﴿قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾

فراحوا يبحثون عن ما يبرر كفرهم به، وهم الذين كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس من حولهم، وكانوا يتناقلون فيما بينهم البشائر عن ظهور خاتم الأنبياء. ولكن لماذا اتخذوا هذا الموقف؟ لعل هناك أسباباً عديدة، منها المصالح المادية والعصبيات القبلية والشهوات العاجلة.

بلى؛ إنها أدت بهم إلى تكذيبه بحجج واهية؛ مثلاً طالبوه بأن يأتيهم بما جاء به موسى ﷺ من قبل؛ مثل العصا التي تنقلب ثعباناً.. ولم يعقلوا أن معجزة القرآن الكريم أعظم بما لا يقاس منها، لأن كلمات القرآن أحرقت كل الكبر والغرور لأشعارهم وثقافتهم، ذلك لأن القرآن أبطل الثقافة المريضة والتقاليد البالية، ليث فيهم بصائر التوحيد وقيم العدل ومبادئ الأخلاق السامية.. وقد كانوا يتفاخرون بأمجاد زائفة وبالظلم الفاحش، وحتى باغتصاب النساء والإعتداء على الضعفاء.

ثم إن القرآن الكريم جابههم بالحقيقة قائلاً:

٣- ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾

بلى؛ إنهم اليوم يطالبون بآيات نزلت على النبي موسى ﷺ لمجرد تبرير كفرهم بالرسالة الجديدة، مع أنهم كفروا بتلك الآيات يومئذ.

إن العلة في تكذيب الرسالة، ليست في طبيعة المعجزة التي جاء بها، وإنما في منهج التعامل معها. لقد كان منهج التشكيك، ومن ثم الجحود.

لقد كانت الآية التي جاء بها النبي موسى عليه السلام متناسبة مع واقع المجتمع المصري، بينما المجتمع العربي في بلاد الجزيرة مختلف عنه. لقد كان انتشار السحر في مصر يقتضي آية مثل العصا.. بينما لم يكن مثل ذلك في المجتمع العربي، بل كان هذا المجتمع بحاجة إلى الكلمة الطيبة والبلاغة النافذة والقيم المثلى.. وهو ما أتى به القرآن المجيد.

ونتساءل: بما أن الجاهليين في مكة وما حولها لم يكونوا يؤمنون بموسى عليه السلام وبما نزل عليه من الرسالة الإلهية، فما المبرر إذًا لمطالبة خاتم الأنبياء أن يأتي بما أتى به موسى بن عمران سلام الله عليه؟ فهل الذين طالبوا بذلك هم يهود الجزيرة أو العرب المتأثرون بهم؟

وعلى أي حال، فإن ما نستفيده من السياق مدى التشابه بين قوم النبي موسى عليه السلام وبين العرب في تبرير كفرهم.

#### ٤ - ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾

السحر الأول هو العصا وما يصدر عنها من فعل. والسحر الثاني هو اليد البيضاء التي تكون لموسى بعد أن يخرجها فتشع نوراً.. فوصف الفراعنة معجزتي موسى عليه السلام هاتين بأنهما سحران يدعم أحدهما الآخر. وهكذا اتهموا النبي موسى عليه السلام بالساحر، حاشا لله.

٥ - ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ لَكَافِرُونَ﴾

أي: أنهم أكدوا عنادهم لرسالة موسى عليه السلام ومعاجزه، وقالوا بأنهم كافرون بموسى ومعاجزه، ولو أتاهم بكل آية.  
ولكن؛ ماذا ينبغي على المصلح الإلهي أن يفعل تجاه هذا العناد؟

أقول: عليه ألا يهتم بهم كثيراً، ولا يتنازل عن شيء من مبادئه، وألا يدهن الكفار أعداء الله تعالى وأعداء الرسالة ابتغاء كسب رضاهم، وعليه أن يفهم أنهم لن يرضوا عنه أبداً حتى يدخل في ملتهم.

### بصائر وأحكام

١ - إن علة تكذيب رسول الله ﷺ ليست في نوع الآية التي جاء بها، وإنما العلة تكمن في تلك العقلية التي تتعامل معها. فإذا كان القوم قد عزموا سلفاً على الكفر، فلا يؤمنون حتى ولو جاءهم النبي بكل آية.

٢ - وعلى صاحب الرسالة ألا يأبه بكفر قومه، ولا يدهنهم أو يسترضيهم بالتنازل عن بعض مبادئه، بل يستقيم عليه حتى يحكم الله بينه وبينهم.



## فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ

﴿قُلْ فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾



### تفصيل القول

١- ﴿قُلْ﴾

بالرغم من أن هذا أمر إلهي موجه لرسول الله ﷺ، فإن على كل الناس الإستجابة ومواجهة غير المؤمنين به، صادعين بالحق، لأن القرآن نزل بلغة (إياك أعني واسمعي يا جارة). فالخطاب إلى النبي، ويجري على كل إنسان.

٢- ﴿فَاتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ﴾

الحق من عند الله تعالى، ومن أراد الهدى فعليه أن يتوجه

إليه، دون أي جهة أخرى. وقد أنزل سبحانه ما فيه الهدى للناس، وعلى الذين لا يؤمنون به أن يأتوا بما هو أهدى منه ومن التوراة من قبله ليكون جديراً بالاتباع. وأي كتاب لا يكون من عند الله تعالى، فهو كتاب ضلال. وهكذا فإن الذين لم يؤمنوا بكتاب النبي موسى عليه السلام بحجج واهية، هم الذين لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وزعموا أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لم يأت بما أتى به موسى عليه السلام، ويتحداهم القرآن عبر النبي بأن يأتوا بأهدى منهما، لأن الإنسان بحاجة إلى كتاب، وإذا لم يؤمنوا بالتوراة والقرآن فلا بد أن يكون لديهم كتاب أهدى منهما، وإلا فما المانع من إتباع أحدهما. ثم يومئذ يكون ذلك الكتاب محور إيمان الجميع، ولكن هيهات.

ويذكرنا هذا النص القرآني بضرورة إنسلاخ الفرد عن ذاته حين الدعوة إلى كتاب الله تبارك وتعالى حتى يكون التبليغ خالصاً نقياً من شوائب التحزب، حيث إن الرسول أمر أن يقول لهم لو أنهم جاؤوا بكتاب أهدى لكان الرسول يتبعه ويترك الدعوة إلى كتابه.

إننا نرى كثيراً من الناس يتقاعسون عن الإيمان بالحق حين يرون بعض الدعاة إليه يخلطون بين الحق وبين أهوائهم وما تمليه عليهم حزبياتهم أو قومياتهم.. فترى العربي يدعو إلى الدين على أنه دين عربي، فيما الفارسي يصوغه بقالب فارسي، وهكذا غيرهما من أبناء القوميات، وكأن الدين قد نزل عليهم فحسب، وكأن الله المتعال إختصهم به دون سواهم. بينما الله سبحانه قد جعل الدين رحمة للعالمين. فهو الجامع للبشرية والحاكم على كل الاعتبارات.

ترى أية رسالة أهدى من رسالة الله التي أنزلها على النبي

موسى عليه السلام والنبي محمد عليه السلام؟

لا ريب أنه لا وجود لهكذا رسالة، ولو وجدت حقاً لكانت  
جديراً بالإتباع ولا مبرر لأن ينظر كل فرد إلى الدين من مسبقاته  
الفكرية والثقافية والمصلحية ومن زاويته الخاصة.

وهكذا؛ كان لزاماً على الجميع أن يضعوا لأنفسهم قاعدة  
أساسية هي أن المقياس في الإتباع هو الحق، وهو يسع الناس جميعاً  
ويوحدهم، ولا حاجة بعده إلى أي صراع.

٣- ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

لقد نههم القرآن إلى مدى مجانبتهم للحقيقة، وافترائهم  
الكذب على أنفسهم، وأنهم كانوا معاندين أصلاً، وما مماراتهم إلا  
محاولات لتبرير تهرّبهم من الحق وكفرهم به. وقد قال الله سبحانه  
وتعالى في آية سألته يصف واقعهم وموقفهم الحقيقي تجاه أصل  
الإيمان: ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نَّ﴾. أي: أنهم مصرّون سلفاً على العناد  
ومعاداة الحق النازل على موسى ومحمد صلوات الله عليهما.

حقاً؛ إن القرآن المجيد يرشدنا إلى أن نشور على مسبقاتنا  
الذهنية وتقاليدنا الموروثة والانفتاح على الحق كل الانفتاح،  
لتتكشف الحجب ويتبين ما هو باطل من تلك المسبقات الذهنية  
والتقاليد السلوكية.

وهذه الثورة المطلوبة ينبغي أن تستمر، حذراً من جموح  
النفس الأمارة بالسوء، التي يُخشى منها على الإنسان أن تورده موارد  
الشك والشرك والكفر، والعياذ بالله العظيم.

\*\*\*

## بصائر وأحكام

١- الحق من عند الله تعالى، ومن أراد الهدى لا بد أن يتوجه إليه، وكل مصدر آخر للكفر ضلال.

٢- لا بد أن يتجرد الداعية إلى الحق من ذاته ومما يتصل بذاته من أنانية أو عصبية، وإن كثيراً من تقاعس الناس عن الحق إنما هو بسبب ما يشوب دعوة المبلغين من شوائب ذاتية.



## إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٠﴾.

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: قال الله عز وجل: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ يَعْنِي مَنْ اتَّخَذَ دِينَهُ رَأْيَهُ بِغَيْرِ إِمَامٍ مِنْ أُمَّةِ الْهُدَى»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١- ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾

إنطلاقاً من جدلهم العقيم، وتبريراتهم الواهية، وقولهم بأن

(١) قرب الإسناد، الشيخ عبد الله بن جعفر الحميري، ص ٣٤٩.

يأتيهم رسول الله بما جاء به النبي موسى عليه السلام من الآيات، فإنهم سوف لا يؤمنون بك يا أيها النبي كما لم يؤمنوا بموسى عليه السلام، ولم يكن لديهم كتاب أهدى منهم؛ كل ذلك يدل على أن عدم الاستجابة للرسول الذي هو الحق، إنما كان بسبب الجهالة والعناد والإسترسال مع الأهواء.

## ٢- ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾

كما النور يكشف الظلام، كذلك العلم يكشف الضلال الذي تمادوا فيه بعد أن اتبعوا أهواءهم. ذلك أن الأهواء لا تقود إلى شيء من الحق، بينما الحق هو الذي يوفر الحياة المطمئنة في الدنيا والمصير الحق في الآخرة.

فالأهواء لا تصدر عن منطق، ولا تسمو إلى معارج الكمال. إن إتباع الأهواء ينتهي بهم إلى حضيض المصير. وإن متبع الهوى، غارق في تيه الأساطير.

## ٣- ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾

أي: إن أبعد نقطة في الضلال، هي التي يصل إليها المتبع هواه، لأنه يمنعه ذلك دون الاستجابة لدعوة الرسول. إن الهوى ليس سيئاً، وإنما إتباعه يشكل الطامة الكبرى، ذلك لأنه يعادل الانسلاخ عن هدى الله تبارك وتعالى.

ونستوحي من السياق أن إتباع الهوى يردي البشر إلى درك الظلم، وعندئذ يسدل بينه وبين نور الهدى حجاب سميك. يقول الله سبحانه:

## ٤- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الظلم ظلمان؛ ظلم للنفس وظلم للآخرين، وحيث لا

يستجيب الإنسان للرسول وللرسالة فذلك لأنه إتبع هواه، فصار ظالماً لنفسه، ومن يظلم نفسه يتجرأ على ظلم الآخرين. وبما أن الهدى كله من الله سبحانه، سواءً عبر العقل أو عبر الوحي، فإن الله قد سبقت كلمته على ألا يهدي القوم الظالمين.

إن للهداية مرتبتان؛ إحداهما هداية تعم الجميع، فهي كما الشمس التي تطلع على الأخضر واليابس والجبال والأودية. فالقرآن جاء للناس جميعاً، والرسول يدعون كل البشر إلى الخير. والثانية هداية خاصة؛ فمثلاً يعطي الله تعالى أفراداً مميزين القدرة على الاستفادة من نور الشمس لإنتاج الطاقة المتجددة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى هداية الرب. فالقرآن بين ظهرانينا نحن البشر جميعاً، ولكن تبصّر حقائقه بجاجة إلى قلب واع غير مطبوع عليه، لا يوفق له إلا الصالحون. بينما من اتبع هواه لا يقدر على تلقي الهداية بهذا المعنى. أوليس قد أصبح في موقع السخبط من جانب الرب الجليل؟

## بصائر وأحكام

١- بما أن الهداية إلى الحق إنما هي من عند الله سبحانه، فإنها لا تنال ظالماً. والظالم يظلم نفسه باتباع الهوى، ويظلم الآخرين حقوقهم.

٢- من يتبع الهوى لا يستجيب لدعوات الهدى، فيبقى في أبعد نقطة للضلال.



## لعلهم يتذكرون

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١)

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ قَالَ: إِمَامٌ بَعْدَ إِمَامٍ<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

لماذا يواتر ربنا سبحانه وتعالى رسله ورسالاته على البشر، ولا يكتفي برسول واحد ورسالة واحدة؟ أو ليس لقائل أن يقول: لقد أسمعتم لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

(١) بصائر الدرجات، الشيخ محمد بن الحسن الصفار، ص ٥٣٥.

فإذا كان ابن آدم قد أحكم على قلبه مغاليتق الهوى والجهل  
والعناد، فهل يستحق إبلاغه الرسالة السماوية الشريفة؟ أو ليس هو  
المقصر أولاً وأخيراً، إن هو ضل السبيل ضلالاً بعيداً؟

كلا؛ إن ربنا المتعال يواتر رسالاته ويواصل القول المرة بعد  
الأخرى، لعله للأهداف التالية:

١- بما أن قلب الإنسان قد تتراكم عليه الحجب، حتى لتراه  
يغط في سبات عميق، فهو بحاجة ماسة إلى التواصل المستمر في  
الإندار لعله يستفيق من نومته.

وهكذا يتم ربنا حجته على خلقه، أو ليس الله تبارك وتعالى قد  
خلقهم ليرحمهم، لا ليعذبهم؟

وهكذا يوفر لهم الفرص للهداية، حتى لا يبقى لأحد منهم  
عذر يصدق به في محضر ربه، فيقول: لولا أرسلت إلينا رسولاً  
منذراً.

٢- قد يكون لهذا القول الموصول أثر في فرد، أو يصبح  
وسيطاً للتأثير في غيره. فقد تجد فرداً مغلق القلب، مسدود الجوانح،  
ميت الأحاسيس، لا ينتفع بالهدى، ولكنه في الوقت ذاته يوصله إلى  
شخص آخر فيتلقاه ويتأثر به ويقبله. كما هو المطر الذي يهطل على  
الصخرة الصماء على جبل فلا تنتفع به كما هو معروف ولكن هذه  
الصخور تسمح للمطر بالنزول إلى الأراضي الطيبة، فينبت الزرع،  
وينتفش الضرع.

٣- ومن خلال التدبر في الآيات نستفيد كيفية الدعوة إلى الله  
تبارك وتعالى. فلا ينكفي الداعي على نفسه ويعتزل بعد جولة واحدة

من التبليغ والدعوة. وها هو رسول الله ﷺ خاطب الناس بادئ بدء قائلاً: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا<sup>(١)</sup>. ثم استقام على ذلك النهج حتى آخر لحظة من حياته الشريفة، دون ملل أو كسل.

٤ - ثم إن ربنا سبحانه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم، ولا بد أن يرجع إلى تلك الفطرة التي تقادم الزمان. ولعل الإنسان يتكامل كلما تقدم به الزمان، وتراكت لديه التجارب.. وهكذا فهو ينذر ويبشّر الإنسان بألف طريقة وطريقة، لعله يتذكر ويخشى.

### بصائر وأحكام

لكي يتم ربنا المتعال الحجة على عباده، يواصل القول لينذرهم المرة بعد الأخرى، ولعل البعض منهم يستفيق من سباته فيتذكر، وربما يبقى مشعل الهدى وضاءً للأجيال الواعدة فيؤمنوا. وهكذا على الرسالين ألا يهنوا في الدعوة إلى الله سبحانه، ويتخذوا من النبي ﷺ قدوة في الإستقامة على طريق الرسالة.

(١) مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب، ج ١، ص ٥١



## هم به يؤمنون

﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

القرآن كتاب لجميع بني البشر، ويخلو من أية عصبية، إلا عصبية الحق. ومن هنا؛ كان الحديث عن أهل الكتاب في القرآن عادةً لا يخلو من لطف، فهو يتضمن الكثير من الأدب وجمال التعبير. بلى؛ قد نجده يتحدث بكلمات قاسية، حيث يراد منها تأديبهم، ولعلمهم يعودون إلى جادة الحق.

إن هذه الميزة في كتاب ربنا، هي بذاتها حجة بالغة على أنه من عند الله سبحانه وليس من أي إنسان. أو ليس البشر لا يخلو من عصبية؟

إن العلاقة بين الناس ليست مجرد صدفة أو من أجل مصالح

مشتركة، ولكنها سُنة إلهية لا تتغير. أليس الله سبحانه قد جعل بعض الناس فتنه للآخر؟ وهذه الفتنة ليست خاصة بالجوانب السلبية، وإنما الفتنة في منطق القرآن المجيد هي نوع من الامتحان، وهدفها إصلاح الإنسان وجعله أقوى شكيمة وأمضى إرادة، كما الذهب حين يُلقى بالنار؛ فهو يذوب وينصهر بالنار، ولكنه يتطهر في الوقت ذاته من الشوائب.

لقد جعل ربنا تعالى في الإنسان منظومة من النوازع، بهدف إقرار التوافق الاجتماعي الصالح. ولكن قد تتحول بعض تلك النوازع لدى الأفراد، كما عند الأمم إلى صراعات ذات لبوس ديني أو قومي أو عرقي.. وذلك بسبب بغى الناس على بعضهم، وعدم إعترافهم بحقوقهم. بينما نجد القرآن المجيد يعطي لكل ذي حق حقه ويتعامل مع الجميع بما يستحقون، فينصفهم ويعدل بينهم تماماً. وهكذا تراه هنا يذكر أن من أهل الكتاب ممن كانوا من قبل هوداً أو نصارى من تراه يؤمن بهذه الرسالة لدى وصول الحجة وتبين الحق له، ولطالما انتظروه، بل كان بعضهم يبشر به أيضاً.

وهذه الشريحة من الناس حجة لله على الباقين من أهل الكتاب، وعلى كل الذين كابروا وعاندوا الحق المبين.

ثم إن هؤلاء الذين آمنوا بالقرآن الكريم، هم الذين آتاهم الله تعالى التوراة أو الإنجيل، فأمنوا بكتب الله حقاً وكما أنزلها الله تعالى؛ ولذلك تراهم يؤمنون بالقرآن، لأنهم يعتبرون كتب السماء وحدة واحدة. أما الذين كفروا من اليهود والنصارى بالقرآن، فهم الذين لم يؤتاهم الله تعالى حقاً توراة ولا إنجيل، ولا هم آمنوا حقاً بموسى أو عيسى عليه السلام كما أراد الله، بل إنهم يتسبون إليهما بلا وجه حق ومنطق.

## بصائر وأحكام

إن العلاقة بين الناس ليست مجرد معاش مشتركة، ولكنها  
سُنَّة إلهية تتمثل في كثير من النوازع والدوافع، وأذا ما حُرِّفت هذه  
السُنَّة عن مسارها الإيجابي إلى حالة من الصراع السلبي، فإن علينا  
أبدًا تصحيح مسارها والاستفادة من بواعثها الإيجابية.



## إنه الحق من ربنا

﴿وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ ۚ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿وَإِذَا يُنَالِي عَلَيْهِمْ﴾

التلاوة بمعنى القراءة، ولكن بتتابع. فيكون المعنى: إذا توالى عليهم القرآن وحججه البالغة.

٢- ﴿قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ۚ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾

أي: أنهم لما سمعوا الكتاب، اتخذوا منه موقفاً إيجابياً، ولم يبحثوا عن معاذير للكفر به. لماذا؟

لأنهم قد عرفوا بأنه حق نازل من عند الرب المتعال، لأن

معرفتهم بالكتب السابقة وفرت لهم فرصة التعرف على هذا الكتاب،  
لأنه وإياها من سنخ واحد.

٣- ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾

أي: إنهم أوردوا دليلاً على إيمانهم الحاضر بالقرآن الكريم،  
وهو أنهم كانوا من قبل مسلمين؛ قد أسلموا أنفسهم لإتباع الحق،  
أنى كان، ومن أي موقع صدر. وهذا الإسلام النفسي مهَّد لإيمانهم  
الحاضر. وهكذا لم يكن إيمانهم بالقرآن بالأمر الجديد.

### بصائر وأحكام

١- من تمتع برؤية نافذة مستفادة من كتب الله السابقة، لا  
يلبث أن يؤمن بالقرآن، لأنه وإياها ينبعان من مصدر واحد.

٢- لأن الإسلام يعني التسليم لكل حق، فإنه لا يتجزأ عند  
المؤمن حقاً. أوليس قد وطن نفسه بالإذعان للحق أنى كان ومن أين  
أتى؟



## يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ

﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ  
السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٥٤).

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ  
بِمَا صَبَرُوا﴾ قَالَ: «بِمَا صَبَرُوا عَلَى التَّقِيَّةِ». ﴿وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾  
قَالَ: الْحَسَنَةُ التَّقِيَّةُ، وَالسَّيِّئَةُ الإِدَاعَةُ»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١ - ﴿أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾

المؤمنون فريقان؛ فمنهم من يكتفي بأداء الواجبات، واجتناب

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٢١٧.

المحرمات، ثم يرجو رحمة ربه. ومنهم فريق أرقى، إذ لا يني يبحث عن الدرجات العلى للإيمان، وذلك بأن يكون مجاهداً باذلاً في سبيل الله غاية المجهود، وداعياً للآخرين إلى الإيمان، أو لم يقل ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(١)</sup>.

إن هؤلاء وجلون أبداً من مصيرهم الأخرى، لا سيما وأنهم أهل كتاب، ولقد أتوا المزيد من المعرفة، فتراهم لفرط إيمانهم وعرفانهم يبحثون عن النجاة من نار جهنم وعن النيل بالجنة والرضوان. وهكذا يدفعهم هذا البحث إلى بذل مزيد من الجهود لاستدراك ما فاتهم من فرصة، وهكذا ترى أن صفاتهم الإيمانية أسمى من سائر المؤمنين.

ونستفيد من الرواية الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة، أن هذا الفريق من أهل الكتاب تميزوا بعدم الإسترسال مع عامة اليهود والنصارى، وذلك في المحافظة على الإستقامة على الرسالة وعدم الإنحراف عنها كغيرهم الذين تأثروا بالفلسفة الهيلينية أو بالأفكار الغنوصية. ومن هنا كانوا يعيشون حالة من الثقة (التقية) ليس فقط من السلطة الظالمة، وإنما أيضاً من الغوغاء الصاخب ممن انحرفوا عن الصراط.. فصبروا على أذاهم وتهميشهم، ودرؤوا بحسنة الثقة (التقية) سيئة الإذاعة، وكانوا ينفقون علومهم وأموالهم وما أتوا من جاه، من أجل المحافظة على نقاء دينهم، فلذلك أتوا أجرهم مرتين بفضل الله، مرة جزاء ما عانوه في محنة الثقة، ومرة بما بادروا إلى الإيمان بالرسالة الجديدة.

ويمكن أن نستفيد من سياق الآية، أن لهذه الطائفة التي آمنت

---

(١) سورة النساء، آية ٩٥.

بنينا ﷺ بعد إيمانهم بالسابقين من الأنبياء ﷺ ميزة عند الله، فلا بد أن تعطى لهم ميزة في المجتمع الإسلامي باعتبارهم حجة على غيرهم من أهل الكتاب وعلى المستضعفين من المسلمين.

## ٢- ﴿وَيَذَرُونِ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

من حق الإنسان رد العدوان بعدوان مثله، كما قال سبحانه: ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾<sup>(١)</sup>. وهكذا استرداد الحق، إنه حق مشروع، إلا أن من يرفع راية الهدى ويتمتع برسالة يدعو إليها الناس ينبغي أن يفكر أولاً وأخيراً فيما ينفع رسالته وليس فيما ينفع حقه. وهكذا عليه أن يتنازل عن حقه الشخصي بعض الأحيان من أجل الدين. ونقرأ في دعاء مكارم الأخلاق كلمة رائعة من الإمام زين العابدين ﷺ: اللهم صلّ على محمد وآله، وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزني من هجرني بالبرّ، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة، وأغضي عن السيئة<sup>(٢)</sup>.

ثم إننا نجد في هذه الكلمة بصيرة هامة، هي أن المؤمن يمتاز ببعده نظر، فتراه لا ينظر أمام قدميه فحسب، بل هو بعيد المدى، ولذلك تراه أبداً يعمل بمبدأ (الوقاية خير من العلاج) فيبادر إلى تحدي المشاكل قبل وقوعها، وإليك بعض الأمثلة:

١- فيما يتصل بسلامته الجسدية تراه يلتزم بكل ما هو ضروري من الوقاية عن الأمراض، كالطهارة، وانتخاب أزكى

(١) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٢) الصحيفة السجادية، الإمام علي بن الحسين زين العابدين ﷺ، ص ١١١، دعاء مكارم الأخلاق.

الطعام، وتجنب الإسراف في المأكل والمشرب والنكاح، وتعويد نفسه على الخشونة، وتجنب مواقع الخطر.

٢- أما في معيشتها، فهو يلتزم بالإقتصاد. ولكي يكون خفيف المؤونة عظيم المعونة، يخطط أبداً لمستقبله، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً.

٣- وبالنسبة إلى أمنه، فهو يحصن بيته وبلده بأفضل أنواع الدفاع، ويعد لنفسه ومجتمعه من القوة ما يرهب عدوه من التفكير في الإعتداء عليه. وهكذا المؤمن سباق إلى الخيرات، يعيش واقعه ومستقبله معاً، ويتفوق على ظروفه، ويدراً بالحسنة هذه كل سيئة.

٣- ﴿وَمِمَّا زَكَّاهُمْ يَنْفِقُونَ﴾

وهكذا تراه لا يعيش لنفسه فقط، وإنما ينفق من علمه وجاهه وطاقاته لمصلحة الآخرين.

## بصائر وأحكام

يتميز المؤمنون حقاً بدرء السيئة بالحسنة، لأنهم مخلصون في حمل الرسالة. فهم يصبرون على ما يلاقونه من مخالفة الناس، ويستعملون التقية، ويواجهون عداوة الناس لهم بالخلق العظيم، ويبادرون إلى فعل ما يدرأ عنهم الأخطار بإذن الله تعالى.



## لا نبتغي الجاهلين

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ  
أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(١)</sup>

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَرَضَ  
الْإِيمَانَ عَلَى جَوَارِحِ بَنِي آدَمَ، وَقَسَمَهُ عَلَيْهَا؛ فَلَيْسَ مِنْ جَوَارِحِهِ  
جَارِحَةٌ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَتْ مِنَ الْإِيمَانِ بَعْضٌ مِمَّا وُكِّلَتْ أُخْتُهَا؛ فَمِنْهَا  
أُذُنَاهُ اللَّتَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، فَفَرَضَ عَلَى السَّمْعِ أَنْ يَتَنَزَّهَ عَنِ الْإِسْتِمَاعِ  
إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَأَنْ يُعْرَضَ عَمَّا لَا يَجِلُّ لَهُ فِيمَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ، وَ  
الْإِضْغَاءِ إِلَى مَا سَخِطَ اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ فِي ذَلِكَ: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ  
فِي الْكِتَابِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى يُخَوِّضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾<sup>(١)</sup>. ثُمَّ اسْتَشَى

(١) سورة النساء، آية ١٤٠.

مَوْضِعِ النَّسْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَأَمَّا يُنْسِينَاكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾<sup>(٣)</sup>. فَهَذَا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَى السَّمْعِ مَعَ الْإِيمَانِ، وَلَا يُضَعَى إِلَى مَا لَا يَحِلُّ، وَهُوَ عَمَلُهُ وَهُوَ مِنَ الْإِيمَانِ<sup>(٤)</sup>.

## تفصيل القول

حينما يذكر السياق القرآني حقيقة بينها بلاغة تامة حتى تصبح بصيرة نافذة لمن أراد أن يتذكر بها، وهي في ذات الوقت تعالج جانباً من الموضوع العام الذي يتناوله ذلك السياق، بحيث لو لم تُذكر لاختل النظام المعرفي في ذلك السياق، ولو اقتطعت تلك الحقيقة من مجمل السياق، تبقى هي كاملة كافية في موضوعها الجانبي. من هنا قال الله سبحانه:

١ - ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾

فإن هذه بصيرة نافذة تنفع المتذكر بها، وهي في ذات الوقت صفة أخرى من صفات المؤمنين المتميزين إلى جانب صفاتهم المثلى كالصبر والتسليم ودرء السيئة بالحسنة.

وللغو صور شتى؛ مثل الغيبة والنميمة وبذاءة القول والخوض بالباطل والتهمة والتفاخر بمفردات الدنيا.. وهي جميعاً تعكس ثقافة شيطانية بعيدة كل البعد عن بصائر الوحي، وإن الله سبحانه يبغضها

(١) سورة الأنعام، آية ٦٨.

(٢) سورة القصص، آية ٥٥.

(٣) سورة الفرقان، آية ٧٢.

(٤) تفسير العياشي، الشيخ محمد بن مسعود العياشي، ج ١، ص ٢٨٢.

لأنها تؤثر على التوافق الاجتماعي وتساهم في القضاء على روح الاحترام المتبادل بين الناس، بينما الإسلام يريد درء الضرر عن المجتمع والإبقاء على النسيج الاجتماعي الموحد.  
أما كيف يواجهون اللغو، فقد قال ربنا تعالى:

٢- ﴿وَقَالُوا لَنَأَعْمَلُنَّ وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾

إن هؤلاء المؤمنين ينظرون إلى لوحة الحياة الفاضلة المرسومة لهم بكل تفاصيلها. إنهم يميزون وبوضوح بين ما هو صالح وما هو طالح في التعامل الاجتماعي. فلا تشتبك الصفات في رؤيتهم، ولا تضع القيم المرجعية في تحديدها، ولا تتداخل الحدود الفاصلة بين الحق والباطل. وقد قال ربنا تعالى في آية أخرى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾<sup>(١)</sup>.

أي: إن للسلوك الديني حريمه الخاص، وإن المؤمنين ينشغلون أولاً بأنفسهم وتركيتها وتنميتها، ولا يشغلهم الإهتمام بما لدى غيرهم من عيوب.

وبالنسبة إلى الآخرين، تراهم يقولون:

٣- ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبَغَى الْجَاهِلِينَ﴾

أي: إن المؤمن لا يصر على مواجهة الجاهلين بالعنف، وإنما باللطف، لأنه يأمل أن تكون الكلمة الطيبة وسيلة لعودتهم إلى جادة الصواب.

وهم في الوقت ذاته يحرسون على التوقّي من جهل أولئك

---

(١) سورة الكافرون، آية ٦.

﴿لَا نَبْتَغِي﴾ حيث تراهم يضعون لأنفسهم حصناً حصيناً لئلا يتلوثوا بممارسات خصومهم.

### بصائر وأحكام

إن للدين حریمه، فلا يجوز تجاوزه. ومن هنا فإن من صفات المؤمنین إنشغالهم بأنفسهم وتركيتها وتنميتها، وإعراضهم عن تجسس عيوب الآخرين.

وهكذا تراهم يتوقون التأثير بسلبیات الآخرين، لأن الحدود المائزة بین الصالح والطالح واضحة المعالم لديهم، فلا تتداخل، ولكنهم مع ذلك يجنحون للسلم أبداً.



## الله يهدي من يشاء

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ  
أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

\*\*\*

### من الحديث

عن علي بن عقبة، عن أبيه، قال: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَقُولُ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ، وَلَا تَجْعَلُوهُ لِلنَّاسِ، فَإِنَّهُ مَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ لِلَّهِ، وَمَا كَانَ لِلنَّاسِ فَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ. وَلَا تُخَاصِمُوا النَّاسَ لِدِينِكُمْ، فَإِنَّ الْمُخَاصِمَةَ مَمْرُضَةٌ لِلْقَلْبِ. إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وَقَالَ: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ <sup>(١)</sup>. دَرُّوا النَّاسَ، فَإِنَّ النَّاسَ أَحَدُوا عَنِ النَّاسِ، وَ إِنَّكُمْ أَخَذْتُمْ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» <sup>(٢)</sup>.

(١) سورة يونس، آية ٩٩.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص ١٦٦.

## تفصيل القول

الهداية الإلهية لا تتحصل من عاطفة جياشة أو رغبة طامحة، بل هي نازلة من عند الله تعالى تبعاً لحكمة ربانية؛ ومن هذه الحكمة أن الإنسان يتقدم نحو هذه الهداية ويحقق في واقعه أسبابها، ويسعى إليها ويدعو ربه دعاءً ملحاً.

وهدى الله مرحلتان؛ ففي الأولى منهما يوفر ربنا فرص الهداية بمنح البشر عقلاً وفطرة، وإنزال رسالة وبعث رسول. أما المرحلة الثانية فإنه سبحانه يشرح صدر من يريد للهدى، ويزوده بنوره، وكل ذلك بحكمة بالغة.

وللناس أن يطلبوا الهدى من عنده أولاً بتلقي رسالته، وثانياً بتوفير ما هو ضروري لتلقي النور من عنده، وهو أعلم بالمهتدين. وهذه الحقيقة تبصرنا بأمرين:

أولاً: لا مبرر لأي كان أن يزكي نفسه أو الآخرين، أو يمارس دور التفسير والتكفير، ذلك لأن حساب الخلق على الله تعالى وهو الذي يشيهم أو يعاقبهم في دار الدنيا ودار الآخرة، وهو أعلم بهم. ومن هنا فإن من الجدير بالمؤمن أن لا يضيع وقته في تحديد مصائر الآخرين.

ثانياً: لا يجوز أن يدعى أحدٌ بأنه قد بلغ حدّ الهدى، إلا إذا استند في ذلك على حجة بالغة من عند الله. وبمجرد إدعاء الهدى، لن يبلغ الفلاح، إلا إذا شهد له الرب بذلك.

\*\*\*

## بصائر وأحكام

ليست الهداية بالتمني والتظني، فهي ليست عاطفة جياشة أو  
رغبة طامحة، بل هي من عند الله تعالى تبعاً لحكمة بالغة.

وعلى الإنسان أن يوفر في نفسه كافة الشروط الموضوعية  
للهداية، ثم ينتظرها من عند الرب تعالى، ولا يدعي أنه قد بلغها لأن  
الله أعلم بالمهتدين، فربما يكون هذا الإدعاء مجرد تمنيات.



## أولم نمكن لهم حرماً آمناً؟

﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنَخِّطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِبِّي إِلَيْهِ تُمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٧).

\*\*\*

### من الحديث

قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهِيَ حَرَامٌ إِلَيَّ أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ؛ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ لِي إِلَّا سَاعَةٌ مِّنْ نَّهَارٍ»<sup>(١)</sup>.

وقال رسول الله ﷺ: «مَكَّةُ حَرَمٌ لِلَّهِ، حَرَّمَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ٢٢٦.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٤، ص ٥٦٤.

## تفصيل القول

١ - ﴿ وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾

لقد علم أهل مكة بأن ما جاء به النبي الأكرم ﷺ هو حق الهدى، ولكنهم تشبثوا بتبرير لعدم الإيمان به، هو ذاته التبرير الذي تشبثت به الأمم السالفة.

واستعمال أداة الشرط ﴿إِنْ﴾ جاء للإشارة إلى أنه كان بالإمكان أن يتبعوا رسالة النبي ﷺ، ولم يكن ثمة حاجز دون الإيمان به، لاسيما وأنهم قد أقروا بأن ما جاء به هو الهدى، وأنهم كانوا في ضلال بعيد.

٢ - ﴿ نُنَخِّطُفَ مِنْ أَرْضِنَا ﴾

وإذا؛ لماذا لم يؤمنوا مع إقرارهم بأن الرسالة حق؟

لأنهم كانوا يخشون إذا هم آمنوا أن تتكالب عليهم العرب من أطرافهم بسبب إيمانهم بالرسالة، خشية أن عرب الجزيرة سوف يعترضون عليهم بسبب التحول الذي ستحدثه الرسالة النبوية الكريمة في مركز الجزيرة العربية؛ أي مكة المكرمة، وما يحدثه هذا التغيير في أمور الحج إلى مكة، باعتباره ذات أهمية كبيرة عندهم. ولذلك كان مشركوا مكة قد اعتبروا الإيمان واتباع الهدى النبوي مساوياً للتعرض للهجوم، وربما الإبادة.

إذا؛ كانوا تحت تأثير العامل الاجتماعي والسياسي في منطقتهم الجغرافية، عند كفرهم بالرسالة.

٣ - ﴿ أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا ﴾

ولكن القرآن الكريم هنا يتساءل مستنكراً عليهم هذا التبرير

الذي تمسكوا به، ويسألهم عن حالة الأمن التي يرفلون فيها الآن ومنذ دهور، وعمّا إذا كانوا هم الذين يعود إليهم الفضل في توفرها، بينما هي معدومة في كافة أنحاء الجزيرة العربية.

ترى هل أن حكمة الجاهلية هي التي جعلت الحرم المكي الكعبة والمسجد الحرام ومدينة مكة ومساحة الحرم من حولها هي التي وفرت الأمن، فلماذا لم توفر في أي منطقة أخرى؟ أم أن الله تعالى الذي أرسل النبي الجديد بالهدى هو الذي وفر هذا لهم، وذلك بفضل تعاليم الرسالات السابقة، وبفضل حمايته المباشرة للحرم، وقصة أصحاب الفيل أكبر شاهد على ذلك، وهي لم تكن يوماً بعيدة عنهم؟ إن الجاهليين كانوا يفتقرون للأمن بما كانوا يمارسونه من عشائرية وعنصرية وطبقية، وبما نفّس فيهم من ظلم إجتماعي.. إنما إرادة الله تعالى، وما تبقى فيهم من تراث ديني، وبالذات ما بقيت لديهم من الحنيفة الإبراهيمية، وأيضاً الثقل الإيماني الذي كان يوفره لهم بنو هاشم، وفيهم بعض أوصياء الأنبياء، هو الذي وفر لهم الأمن. وهذا النبي ﷺ يدعوهم إلى ما فيه أمنهم وأمن البلاد العربية كلها.

٤ - ﴿يُجِبِّي إِلَيْهِ تُمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾

والأمن يوفر الرخاء وسعة الرزق. وهكذا كان في مكة، مع أنها كائنة بين جبال جرداء، ووادي غير ذي زرع، ولكنها أصبحت مركزاً تجارياً يجبي إليه كل شيء، حتى أصبح أهل مكة يحسدون على ما لديهم من النعم التي تجبي إليهم من آفاق الأرض.

ولكن جاهليو مكة نظروا إلى هذا الأمر من زاوية خاطئة، وزعموا أن الإيمان بالرسول يهدد أمنهم، ولم يتعاملوا مع الفضل الإلهي عليهم بالأمن والرزق بشكر وعرفان الجميل، فكفروا

بالرسالة الإلهية جهلاً بما تحمله إليهم وبالمزيد من النعم.

٥- ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

أكثرهم كانوا لا يعلمون بما أعد الله تعالى من مستقبل زاهر وجزاء أخروي عظيم لو أنهم آمنوا بالرسالة؛ كانوا لا يعلمون بأنهم بعنادهم هذا إنما يتبعون الجاهليات التي سبقتهم، وقضت بالتطير من الأنبياء السابقين، مما كلفهم مصائبهم.

وهكذا عبر التاريخ وإلى اليوم تقابل الدعوات الإصلاحية بمزاعم أنها تهدد مكاسب الأمة.

بلى؛ إن علينا أولاً أن نضحى ببعض المكاسب من أجل بلوغ التغيير الإيجابي، والوصول إلى مكاسب عظيمة.

والصراع دائم بين المحافظة على واقع فاسد بزعم أن فيه بعض المكاسب، وبين التطور إلى الأفضل. وهذا ما نراه في الردة الجاهلية التي قادها بنو أمية لتغيير مسار الدين الإسلامي، ومحاولة العودة إلى تقاليدهم، ولكنها بالتالي باءت بالفشل، بسبب جهاد المخلصين من أبناء الأمة بقيادة أهل بيت الرسول ﷺ.

## بصائر وأحكام

إن التغيير الإيجابي الذي نجده في دعوة الأنبياء ﷺ قد يقتضي التنازل عن بعض المكاسب الموجودة في الواقع الفاسد، من أجل الوصول إلى مكاسب أعظم تحت راية الرسالات الإلهية.



## وكنا نحن الوارثين

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرْتِمْ مَعِشَتَهَا فَنِلَاكَ مَسْكِنُهُمْ  
لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ ﴿٥٨﴾

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في الزهد وذي  
الدينيا وعاجلها: «وَجْعَلْ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيْحِ أَكْنَانٌ، وَمِنَ التَّرَابِ أَكْفَانٌ،  
وَمِنَ الرِّفَاتِ جِرَانٌ. فَهُمْ جِرَّةٌ لَا يُحِيْبُونَ دَاعِيَاً وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا.  
لَا يَزُورُونَ وَلَا يَزَارُونَ. حُلَمَاءٌ قَدْ بَارَتْ أَضْغَانُهُمْ، جُهَلَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ  
أَحْقَادُهُمْ. لَا تُخْشَى فِجْعَتُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، وَهُمْ كَمَنْ لَمْ يَكُنْ،  
وَكَمَا قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَنِلَاكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا  
وَكَنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾. اسْتَبَدَّلُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ بَطْنًا، وَبِالسَّعَةِ ضَيْقًا،  
وَبِالْأَهْلِ غُرْبَةً، وَبِالنُّورِ ظُلْمَةً»<sup>(١)</sup>.

(١) تحف العقول، الشيخ ابن شعبة الحراني، ص ١٨٣.

## تفصيل القول

١ - ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ ﴾

كثيرة هي الأمم التي أهلكها الله تعالى، فصارت حتى لا تستحق تسميتها بحضارة، بل هي تعتبر مجرد قرية في حسابات السماء، بالرغم من الرخاء النسبي الذي تنعموا به، وهكذا ينبغي أن تُعتبر في حسابات أهل الأرض.

٢ - ﴿ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾

من أسباب هلاك الأمم، ضياع المقاييس لديها، تلك التي وضعها الله سبحانه لتدبير المعيشة الطيبة. وضياع المقاييس يدعو إلى البطر، ومن البطر تقديم المصالح الفردية على المصالح الجمعية، مما يثير الصراعات المدمرة.

إن أي أمة تفقد الاتجاه الصحيح تتلاشى، ولا ينقذها إذ ذاك إصلاح بعض المواقف، ما دام الاتجاه العام خاطئاً.

ثم إن ضياع بوصلة الاتجاه يزيد من حدة الصراعات بين أبناء الأمة، مما يسبب في إنهاكها وتسلب الظالمين عليها، حيث هم يثرون المزيد من الصراعات بين الناس ليقوا بعيدين عن ثورة الناس عليهم.

ومن هنا؛ فعلى الأمة أن تعرف الاتجاه الصحيح لحركتها، وتصهر طاقتها في بوتقة ذلك الاتجاه، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة قيم المعيشة الطيبة التي سنّها ربنا سبحانه لنا. ومن لم يكن كذلك فقد ظلم نفسه، ولعله لذلك يؤكد ربنا سبحانه أنه لم يهلك قرية إلا وأهلها ظالمون.





## حتى يبعث في أمها رسولاً

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا  
يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا  
ظَالِمُونَ﴾ (٥٩)

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ  
رَسُولًا هَادِيًا، بَكِتَابٍ نَاطِقٍ، وَ أَمْرٍ قَائِمٍ؛ لَا يَهْلِكُ عَنْهُ إِلَّا هَالِكٌ، وَإِنَّ  
الْمُبْتَدَعَاتِ الْمَشْبَهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إِلَّا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا»<sup>(١)</sup>.

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «وَابْتَعَثَ فِيهِمُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ  
وَ مُنذِرِينَ، ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾»<sup>(٢)</sup>.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٦٩.

(٢) علل الشرائع، الشيخ الصدوق، ج ١، ص ١٢٠.

## تفصيل القول

١ - ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا ﴾

لأن رحمة الله سبقت غضبه، ولأنه خلق الناس ليرحمهم، فإنه لا يهلك أمة بظلمها حتى يبعث إليهم رسولاً. وهكذا جرت سُنَّتُه في الأولين، وعلينا أبداً دراسة تاريخ الأمم السالفة، سعيًا وراء إستنباط العبر من حياتهم لكي نتجنب هلاكهم، وأيضاً التعرف على عوامل النجاة لعلنا نستفيد منها.

ذلك أن عمر البشر قصير للغاية، وهو لا يستطيع أن يواجه التحديات الكبرى التي تعترضه، ما لم يستفد من عبر الأولين. لذا صار من حق ابن آدم، بل من واجبه البحث عن تجارب غيره والاتعاظ بها. ولهذا نجد ربنا عز اسمه يذكرنا في كتابه المجيد بمصائر السابقين والغابرين.

ومن خلال دراسة التاريخ وقصص الأولين، يعرف البشر أسماء ربه سبحانه، فهو أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، ولكنه منتقم جبار في موضع الكبرياء والعظمة، ذلك لأنه لم يخلق الناس للعب واللهو، ولا يتركهم سدى.

وهكذا نجد أن من الأمم من عاشوا أرغد العيش ثم بطروا في معيشتهم وراحوا يعيشون في الأرض فساداً، فلما تحول الفساد لديهم إلى حالة عامة، بعث الله تعالى قبل أن يهلكهم أنبياءه ورسله فأندروهم لعلمهم يتجنبوا الدمار، فلما كفروا بالرسول عمَّهم بعذاب بئس.

أما مفردة ﴿ أُمِّهَا ﴾ في الآية إشارة إلى مركز القرى وعامتها التي ترجع إليها وتآتمر بأمرها؛ مثل مكة المكرمة التي كانت أم القرى في الجزيرة العربية.

## ٢- ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾

أي: يذكرهم بالقيم التي وضعها الله تعالى لتنظيم حياة البشر وهدايتهم إلى الحق. وهذه هي مهمة الرسول الذي قد يكون نبياً أو رسولاً أو إماماً أو حتى رجلاً مصلحاً من دائرة مبلغي الهدى. وابتعث الرسل في أم القرى يذكرنا بأهمية توجه المذكرين إلى مركز القرار الاجتماعي في كل أمة، وعدم الإكتفاء بأداء الدور في المساحات الهامشية.

## ٣- ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۖ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

إنها سنة تفيض من إسم ربنا القائم بالقسط، حيث الهلاك جزاء عادل للظلم. وفي الحقيقة إن الظالم يُمضي بظلمه كتاب هلاكه، وإن مستوى الهلاك يكون متناسباً مع مستوى الظلم. كما أن الظلم قد يبدأ بفعل بسيط، ولكنه لا يزال تتسع دائرته حتى تحيط بمن يمارسه من كل جانب، والعياذ بالله.

### بصائر وأحكام

إن عمر البشر قصير للغاية، وهو لا يستطيع أن يواجه التحديات الكبرى التي تعترضه، ما لم يستفد من عبر الأولين. لذا صار من حق ابن آدم، بل من واجبه البحث عن تجارب السابقين والاتعاظ بها بما ينفعه لواقعه.



## ما عند الله خير وأبقى

﴿وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنٰهَا وَمَا عِنْدَ  
اللّٰهِ خَيْرٌ وَأَبْقٰى ۗ فَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ (٦٠)

\*\*\*

### من الحديث

عن أنس قال: «وَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيَّ مَجْلِسٍ مِنْ بَنِي  
سَلَمَةَ، فَقَالَ يَا بَنِي سَلَمَةَ (إِلَى أَنْ قَالَ) مَا الْمُعْدِمُ فِيكُمْ؟ قَالُوا: الَّذِي  
لَا مَالَ لَهُ. قَالَ: بَلْ هُوَ الَّذِي يَقْدَمُ وَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ»<sup>(١)</sup>.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛  
مَتَاعُ الدُّنْيَا حُطَامٌ مُوبِئٌ»<sup>(٢)</sup>، فَتَجَنَّبُوا مَرَعَاهُ<sup>(٣)</sup>. قُلْعَتُهَا<sup>(٤)</sup> أَحْطَى مِنْ

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٧٩، ص ١٢٠

(٢) مُوبِئٌ: أي ذو وباء مهلك.

(٣) مرعاه: محل رعيه، والتناول منه.

(٤) القلعة: عدم سكونك للتوطن.

طَمَأْنِنَتِيهَا، وَبُلَّغْتَهَا<sup>(١)</sup> أَزْكَى مِنْ نُرْوَتِهَا. حُكِمَ عَلَى مُكْثَرِهَا بِالْفَاقَةِ، وَ  
أَعِينَ مَنْ غَنِيَ عَنْهَا بِالرَّاحَةِ. مَنْ رَاقَهُ زَبْرُجُهَا أَعْقَبَتْ نَاطِرِيهِ كَمَهَا<sup>(٢)</sup>،  
ومن استشعر الشغف بها ملأت ضميره أشجاناً<sup>(٣)</sup>.

وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الدُّنْيَا دَارٌ مَجَازٍ، وَالْآخِرَةُ دَارٌ  
قَرَارٍ، فَخُذُوا مِنْ مَمَرِّكُمْ لِمَقَرِّكُمْ»<sup>(٤)</sup>.

## تفصيل القول

١ - ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾

أزمة الإنسان الكبيرة، جهله بحقيقة الدنيا وما وراءها، وغفلته  
أو تغافله عن أن الحياة عبارة عن غيب وشهود، وأن من عرف غيبها  
عرف كيف يتصرف مع شهودها.

إن ما أتى الله تعالى بني البشر في الدنيا لا يعدو كونه وسيلة للعيش  
الموقت، ولا يستحق أن يتشبث به الإنسان على أنه جزء من كيانه لا يتجزأ.  
بلى؛ إنه متاع المسافر وزاده إلى القيامة، وهو كذلك زينة يعينه  
على الحياة الطيبة.

٢ - ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

الثواب الذي ينبغي أن يعمل له الإنسان خير من متاع الحياة الدنيا  
وخير من زينتها، لأنه أكثر وأفضل. ذلك أنه تبارك وتعالى قد قسم عطاءه

(١) البُلْغَةُ: مقدار ما يُبَلِّغُ به من القوت.

(٢) الكَمَةُ: العَمَى.

(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٦٧.

(٤) نهج البلاغة، خطبة رقم ٢٠٣.

لل بشرية قسامين، فجعل قسماً منه في الحياة الدنيا، وسمّاه متاعاً وزينة. والمتاع سرعان ما ينتهي، لأنه يُؤكل ويُستعمل ويتلاشى، وهو يحقق هدفاً أسمى، كما أن الزينة يُراد منها تكميل المتاع لإصلاحه وجعله مرغوباً. أما القسم الثاني، فإنه يتصل بالحياة الأبد في الجنة، فهو أفضل وأكثر، بل هو عطاء دائم لا انقطاع له، لأنه المنّة الإلهية اللامتناهية.

### ٣- ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

إنها دعوة إلهية لنا جميعاً، أن نستفيد من موهبة العقل التي وهبها الله لكل إنسان وليس لفرد دون آخر، مما يعني أن موهبة التفكير واتخاذ القرار دعوة لتعقل واكتشاف حقيقة الحياة والحكمة منها وما فيها وما عليها، وعدم الاكتفاء بالعيش الساذج كما تعيش البهيمة، بل إن ابن آدم إذا هو لم يفهم الحياة كما قدرّ العليّ القدير كان أدنى من مستوى الأنعام.

## بصائر وأحكام

إن ما أتى الله تعالى بني البشر لا يعدو كونه وسيلة للعيش في الحياة الدنيا، ولا يستحق أن يتشبث به الإنسان كما لو أنه جزء من كيانه لا يتجزأ، إنه متاع الحاضر وزاد المسافر، وهو زينة تكمله وتجعله سائغاً لممارسة الحياة الطيبة.

أما ما عند الله من رزق معنوي في الدنيا يكتمل في الآخرة، وهو خير وأبقى، وعلى البشر أن يتخذوا من الدنيا وسيلة لتحقيق ذلك الرزق.



## أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقية

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (١١)

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ﴾ قَالَ: «الْمَوْعُودُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، وَعَدَّهُ اللَّهُ أَنْ يَنْتَقِمَ لَهُ مِنْ أَعْدَائِهِ فِي الدُّنْيَا وَوَعَدَهُ الْجَنَّةَ لَهُ وَلِأَوْلِيَائِهِ فِي الْآخِرَةِ»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

١- ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ﴾

إنها مفارقة، جد واضحة، ومقايسة بين شخصين وحالتين،

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٢٤، ص ١٦٣.

بين من يعده الله وعداً حسناً ينتظره لمستقبله، ولا بد أنه لاقية سواء في الدنيا أو في الآخرة. إنه يتمثل في ذلك المؤمن ذي البصيرة النافذة إلى المستقبل، فتراه لا يقتصر نظره على ما بين قدميه، وإنما يستشرف المستقبل حتى وكأنه حاضر ويعيش اليقين بوعد الله الحسن وكأنه ماثل أمامه؛ إنه والجنة كمن رآها، وهو والنار كمن يتلظى فيها. فهو يطوي الزمن الفاصل بينه وبين حقائق قادمة. وهكذا تراه يقتحم العقبات في حياته الراهنة، متسلحاً بالصبر المديد. أليس الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وَعَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَا رَأْسَ مَعَهُ، وَلَا فِي إِيْمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ»<sup>(١)</sup>.

إن صبره على المصائب لا يوازيه إلا صبره على المتاعب وعن الإغترار بالمكاسب. فهو أبداً يعيش فوق أمواج الظواهر المادية، فلا تهده مصيبة فادحة، ولا تغريه شهوة جامحة، ولا يتعبه عمل صعب.. ويؤمن بأن الأيام يداولها الله بين الناس، وأن الظالمين لا بد زائلون، ويرى تحقق وعد الله الحسن كما أنه قرأ آيته ووعاها عقله، فهو يثق بالله مطلق الثقة.

إن النص القرآني هذا يراه المرء جميلاً وبالغ الحكمة. أليس «الْقُرْآنُ ظَاهِرُهُ أُنْبِئُ، وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ»<sup>(٢)</sup>، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

و(الوعد) كما لفظُ (قوم)، يدل على جمع، وله دلالات مختلفة:

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم ٨٢.

(٢) نهج البلاغة، خطبة رقم ١٨.

١- فهو حسن، لأن الموعود به حسن.

٢- وهو حسن، لأنه يتحقق ولا يخلف.

٣- وأهم من كل ذلك، إنه صادر من الرب الجليل، فهو حسن. ولا ريب أن ما يصدر من رحمة الرب المتعال له من القيمة ما لا تضاهي. وهنا تتجلى العلاقة الرائعة بين الله سبحانه وبين عبده المؤمن، مما يبعث في فؤاده المزيد من البهجة والسرور.

٢- ﴿كَمَنْ مَنَعْنَهُ مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾

من الناس - وهذا هو النوع الثاني - من يعيش كما تعيش البهائم، حتى إنه ليتسافل في معيشته وحياته، فلا يفرق بين المتاع وبين الحكمة التي وراءه.

فالمتاع وسيلة لتحقيق هدف، وإنما الإنسان بأهدافه التي تشكل قيمه؛ فبينما المؤمن يكافح من أجلها، ويبتهج سروراً إذا حقق منها شيئاً، ترى الآخر لا يتجاوز الوسائل. المؤمن يأكل ويشرب وينكح، ولكنه لا يجعل كل ذلك هدفه، وإنما يجعل من طعامه وشرابه ولذاته وسيلة لتحقيق أهدافه السامية. فهو يسعد مرتين؛ عندما يشكر ربه عند التمتع بالحياة، ثم عندما يجعل حياته ذات معنى. على أن استرسال الكافر في التمتع باللذات من دون ضوابط أو أهداف، سوف يجعله عرضة للتساؤل عندما يحضر عند ربه المتعال.

## بصائر وأحكام

١- المؤمن يتجاوز ماضيه ويومه، ويعيش في وعد الله

الحسن وكأنه مائل أمامه.

٢- المؤمن يجعل ما في الدنيا من متاع وسيلة لتحقيق القيم المثلى، بينما استرسال الكافر في التمتع باللذات يجعله من المحضرين، حيث يتعرض لحساب عسير.





## أين شركائي؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿١٢﴾

\*\*\*

### من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ رَجُلًا مِنْ خَثْعَمٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: أَيُّ الْأَعْمَالِ أَبْغَضُ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي العباس قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ أَدْنَى مَا يَكُونُ بِهِ الْإِنْسَانُ مُشْرِكًا، قَالَ: فَقَالَ: مَنْ ابْتَدَعَ رَأْيًا، فَأَحَبَّ عَلَيْهِ أَوْ أَبْغَضَ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) المحاسن، الشيخ أحمد بن محمد البرقي، ج ١، ص ٢٩٥.

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٩٧.

## تفصيل القول

كل فساد وكل انحراف وكل تخلف وكل خطيئة يجترحها الناس، مصدرها الشرك بالله تعالى. أما إذا نقي إيمان الإنسان بربه، وصفا قلبه من شوائب الشرك، فإنه يكون مخلصاً وبعيداً بفضل الله تعالى عن كل رذيلة.

ذلك لأن ابن آدم إنما يشرك بأي لون وبأي مستوى حينما يزعم بأن ما يشركه أو مَنْ يشركهم بالله هم مصدر قوة من دون الله سبحانه. فكأنه يستقوي بهم، ويحاول أن يعوّض من خلالهم ما فيه من ضعف، بينما ضعف البشر يُجبر بالله وبتوحيده، وليس بالشرك به سبحانه، إذ الشرك جهل بحقائق الخلق وبما أجرى ربنا فيه من سننه.

إن الذي يزعم بقدسية هذه الصخرة، أو تلك النار، أو بالوهية الشمس والقمر والكواكب، أو بقيمة ذاتية للثروة والقوة، إنه يصبح من حيث يشعر أو لا يشعر عبداً ذليلاً لتلك الموهومات، بينما الذي يكفر بالشرك ويتحرر من التبعية للآلهة المزيفة يعيش في بحبوحة من الكرامة. إنه يسمو إلى عبادة خالقه الحقيقي وربّه الأعلى، بعيداً عن الأوهام والخرافات.

وبكلمة؛ الشرك منظومة من الأغلال تقتضيها جهالة البشر، وفي يوم القيامة تتلاشى.

١- ﴿وَيَوْمَ يناديهم﴾

لعل التعبير بالمناداة لهؤلاء يدل على مدى بعدهم عن ربهم.

## ٢- ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

وهكذا يهز وجدانهم يومئذ من الأعماق، فأين تلك الآلهة التي زينت لهم؟ أين موقعها من الحقيقة في يوم الجزاء العظيم؟ ولعل وراء هذا التساؤل حكمة تتمثل في الإعراف بالشركاء المزعومين؛ مثل الطواغيت، أو الرهبان وعلماء السوء، أو حتى كل شخص يمكن أن يكون قد زعم أنه شريك لله عز وجل. فإذا أشار إليهم المشركون، تم استدعاؤهم لأجل المحاسبة والمعاقبة. ولو أن البشر تصور ذلك اليوم وذلك التساؤل، تفتح عقله، وعرف أن هذه الآلهة المزعومة مجرد أوهام وأساطير، ولا حظ لها من الواقع، فيجد فرصته للتبري منها الآن وقبل فوات الأوان. وتصوير هذه الحالة الغيبية لنا، يُراد منها فيما يُراد إعلامنا بجدية وخطورة ومصيرية هذه القضية، وهول منظرها وما سترتب عليها في يوم القيامة.

### بصائر وأحكام

- ١- كل فساد، وكل إنحراف، وكل خطيئة في حياة الإنسان، مصدرها الشرك بالله تعالى. أما إذا نُقي إيمان الإنسان بربه واستطاع التخلص من شوائب الشرك، قد يصبح من عباد الله المخلصين.
- ٢- تصور يوم القيامة، حيث تلبو الحقائق، يكفي المشرك لكي يتخلص من وهم الشرك ويتوب إلى ربه.



## ما كانوا إيانا يعبدون

﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ  
كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ ﴿١٣﴾

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾

ها هم في النهاية الفجيعة؛ لقد كُتِبَتْ أسماؤهم في الأشقياء، وكان بمقدورهم أن يكفوا عن الشرك لثمحي أسماؤهم من كتاب الأشقياء. هؤلاء هم الذين اتخذهم المشركون آلهة من الطغاة أو علماء السوء، يخاطبون ربهم الحق:

٢- ﴿ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ ﴾

إنهم يقرون أولاً بربوبية الرب العلي القدير، فلم يعد أحدهم

يدعي الربوبية هناك كما كانوا في الدنيا، ثم أقرؤا بدورهم في إغواء الناس الذين كانوا أتباعاً لهم، ذلك لأنه في ذلك اليوم يُدعى كل أناس بإمامهم، وها هم يعترفون بأنهم أتباع لهم.

٣- ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾

فاعترفوا بذنوبهم فسحقاً لأصحاب السعير. أقرؤا بأنهم غاؤون، وأن إغواءهم بغيرهم جاء في سياق غوايتهم. ولعل الغاية من إغوائهم لغيرهم جاء بهدف الإكثار من الأصحاب، ثم الإستعانة بهم ضد أهل الحق.

٤- ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

هنالك تبرؤوا ممن كانوا أتباعاً لهم، ليتخلصوا من الأوزار التي سيحملهم الله عز وجل إياها.

وخاتمة الآية تحتمل وجوهاً شتى:

أولاً: إن الشركاء المزعومين تبرؤوا من التابعين ومن عبادتهم لهم. فالجملة ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا﴾ محتوى التبري، وقد قال ربنا سبحانه في آية أخرى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾<sup>(١)</sup>.

ثانياً: إنهم عبروا عن حقيقة أن التابعين لم يعتقدوا واقعاً بالشركاء، ولم يخضعوا لهم إيماناً بهم، وإنما إتباعهم كان خوفاً وطمعاً، وبالتالي رغبة في دنياهم ورهبة من عقابهم. إذاً كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم، وقد قال الله تعالى في موطن آخر: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ

(١) سورة البقرة، آية ١٦٦.

أَتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا ﴿١﴾.

ثالثاً: إن الشيطان ساهم في إغوائهم، فهو المعبود الحقيقي لهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ (٢).

ولا ضير في أن يكون للآية الواحدة معان شتى، كلها صحيحة.

### بصائر وأحكام

١- هدف أئمة الضلالة من إغواء تابعيهم، أن يتخذوا منهم جسراً إلى رغباتهم، ثم تراهم يتبرؤون منهم.

٢- وهؤلاء الشركاء غواة، والمشركون إذا استنطقوا وجدانهم يعرفون أنهم كذلك، وإنما تراهم يتبعونهم طمعاً في دنياهم وخوفاً من عقابهم، فهم حقاً يتبعون أهواءهم.

(١) سورة الفرقان، آية ٤٣ .

(٢) سورة سبأ، آية ٤١



## وقيل ادعوا شركاءكم

﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَذَرَوْهُمَ فَاسْتَجَبُوا لَهُمْ وَرَأُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لَهُمُ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ (٦٤)

\*\*\*

## تفصيل القول

١- ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾

كلما خفيت على المؤمن حقيقة ترتبط بقواعد الحياة الأصيلة، كان عليه أن يلتفت إلى الآخرة، ليرسم لنفسه صورة واضحة لها، لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فإن كان خيراً ما زرع حصد خيراً، وإن كان شراً فشرٌ مستطير.

ويُصوّر القرآن الكريم الآخرة بتفاصيل دقيقة، لكي نجعلها ماثلة أمامنا، فنحولها إلى برنامج واضح لحياتنا. فمن يشفق من النار، يلهو عن الشهوات المحرّمة. وإذا أردت إنجاز عمل كبير،

فإنك بتذكّر الصراط والميزان تزداد عزيمتك، وتضاعف من الأعمال الصالحة.

أما هؤلاء الذين اتبعوا الشركاء من دون الله سبحانه في الدنيا، فيصور لهم واقعهم في الآخرة، لعل تلك الصورة تجعلهم يعرفون حقيقتهم في الدنيا. هناك يقال لهم: يا أيها الذين أشركتم بربكم واتبعتم الأنداد من دون الله وطلبتهم منهم الشفاعة، فهلاً عرفتم أين هم الآن؟

٢- ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾

فإذا بهم يتهاكون في دعوتهم، لعلهم بحضورهم ودفاعهم عنهم ينقذونهم من ورطتهم العظيمة، ولكنهم لا يجدون إستجابة، إذ الجميع هناك يهرب من الجميع، لأنهم يرون العذاب.

٣- ﴿وَرَأَوْا الْعَذَابَ<sup>٥</sup>﴾

يُصاب المشركون هناك بإحباط لا يُوصف، ويأس لا يُدرك مداه، حينما يُباغتون بمنظر النار الجحيم، فتصير بالنسبة إليهم عين اليقين.

٤- ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾

هذا النص الشريف من لفتات القرآن المجيد، ويتجسد فيه إنعطاف في الحديث إلى جهة أخرى، ويشير إلى معاني عدة، منها: تلك كانت كلمة قالوها بأنفسهم، حيث تمنوا أنئذ لو أنهم كانوا قد اهتدوا في الحياة الدنيا وما وصلوا إلى هذا العذاب. فالنص إذن حكاية عن حال.

وعلىنا أن نعرف أن الإنسان يخضع لدافعين في الغالب؛  
الدافع المحيط به، ولعل الغالبية العظمى من البشر يخضعون له.  
والدافع الثاني: ما يعرفه بوجدانه عن المؤثرات الخارجية.

وعلى الإنسان أن يختلي بنفسه ويحكّم وجدانه، حتى لا  
تتقاذفه أمواج المحيط الخارجي، وتضلّه عن الصراط.

### بصائر وأحكام

كلما خفيت على المؤمن حقيقة ترتبط بقواعد الحياة، كان  
عليه أن يلتفت إلى الآخرة، ليرسم صورة واضحة لنفسه، لأن الدنيا  
مزرعة الآخرة، والآخرة إمتداد لها، ولا تكتمل صورة الحقائق عند  
الإنسان إلا بالنظر إليهما معاً.



## ماذا أحببتم المرسلين؟

﴿ وَيَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أحببتم المرسلين ﴾ ﴿٦٥﴾

\*\*\*

### من الحديث

عن محمد بن مسلم، قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا دَخَلَ قَبْرَهُ جَاءَهُ مَنْكُرٌ، فَفَزِعَ مِنْهُ، يَسْأَلُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَقُولُ لَهُ: مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي كَانَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَ بِالْحَقِّ. فَيَقَالُ لَهُ: ارْقُدْ رَقْدَةً لَا حُلْمَ فِيهَا، وَيَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعَةَ أَذْرُعٍ، وَرَأَى مَكَانَهُ فِي الْجَنَّةِ.

قَالَ: وَإِذَا كَانَ كَافِرًا قَالَ: مَا أَذْرِي. فَيُضْرَبُ ضَرْبَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ مَنْ خَلَقَ اللَّهُ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَيَسْلُطُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ، وَلَهُ عَيْنَانِ مِنْ نَحَاسٍ أَوْ نَارٍ يَلْمَعَانِ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا أَخُوكَ، وَيَسْلُطُ

عَلَيْهِ الْحَيَاتُ وَالْعَقَارِبُ، وَيُظَلِّمُ عَلَيْهِ قَبْرَهُ، ثُمَّ يَضْغَطُهُ صَغْطَةً تَخْتَلِفُ  
أَضْلَاعُهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَالَ بِأَصَابِعِهِ فَشَرَّجَهَا»<sup>(١)</sup>.

## تفصيل القول

### ١ - ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾

من تجليات عدالة الرب سبحانه وتعالى أنه لا يجازي البشر إلا بعد أن يحاكمهم ويجعلهم يدينون أنفسهم. ففي يوم القيامة، حيث المحكمة الكبرى وحيث الموازين التي تتعدد أوقاتها وتتحد حقائقها، يحاسب ربنا العباد تارة بصورة مباشرة، ويحاسبون أمام ميزان العدل الإلهي تارة أخرى.

وظاهر الضمير في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ يعود إلى الله سبحانه، لاسيما وأن الأمر كله عائد إلى الرب القدير، وأنه مالك يوم الدين. فحتى لو كان المنادي غير الله، فإنه نداء عائد إليه تعالى، لأنه بأمره.

والنداء كما تقدم يوجَّه إلى من هو بعيد، ويُعدهم هنا إنما كان لما حملوه من وزر. ثم النداء جعلهم عرضة لشهادة من هم في المحشر، لكي يُفضحوا، لأن النداء القادم أمام ملايين من البشر.

### ٢ - ﴿فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾

لقد حمّل الله المرسلين أمانة كبرى، كانت جديرة بأن يُستجاب لها. أوليست هي من رب الأرباب، وتتضمن الخير كل الخير للناس جميعاً؟ فما كان موقفكم من هذه الرسالة؟.

---

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٤٣.

## بصائر وأحكام

من تجليات عدالة الرب سبحانه وتعالى أنه لا يجازي البشر إلا بعد أن يحاكمهم ويحكم عليهم ويجعلهم بدورهم يدينون أنفسهم بأنفسهم.

لقد حمّل الله الرسل أمانة كبرى، كانت جديرة بالإستجابة من قبل الناس جميعاً، لأن فيها الخير كله لهم جميعاً.



## فهم لا يتساءلون

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٦٦).

\*\*\*

### تفصيل القول

١ - ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾

لقد سُئِلُوا عن موقفهم في الحياة الدنيا من الأنبياء، فعميت عليهم في الآخرة الأنباء، لماذا؟.

لأنهم لم يتعاملوا مع الحقائق ببصيرة تزيح عنهم الحجب وتكشف لهم الأمور.. فصاروا عمين لا يكادون يعلمون شيئاً لهول المطلع وعظمة الموقف.

ونحن نقرأ في آية كريمة: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١) عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُوَ فِيهِ مَخْلَفُونَ﴾ (١). وذلك النبأ العظيم مائل الآن أمامهم، لا يبلغه

(١) سورة النبأ، آية ١-٣.

فهمهم، لأنهم لم يرتفعوا إلى مستواه في الدنيا، فإذا بهم كمن فقد عينه فلا يرى شيئاً.

وقد نُسب العمى إلى الأنباء بدل أن يُنسب إليهم، ولعل السبب أن الأعمى قد يسمع النبأ أو يحس به بطريقة أخرى، أما إذا عمي النبأ وبتعبير آخر: لم يكن هناك أي نبأ، ومن أي مصدر فأنتي لهم بمعرفته؟

## ٢- ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

أي: وصلوا مرحلةً يعجز الواحد منهم عن توجيه سؤال إلى صاحبه الكائن إلى جانبه بخصوص طبيعة الإجابة المطلوبة وما ينبغي أن يقول، ذلك لأنهم تجاهلوا في دار الدنيا حقيقة الرسالة التي كانت واضحة لهم، أو ليس قد جعل الله لكل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً؟ ولكنهم تكابروا عنها، فاليوم في الآخرة تراهم قد عسرت الإجابة عليهم حتى أصبحوا كالعميان. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾<sup>(١)</sup>.

فالآخرة ليست سوى مرآة تامة لما يجري في الدنيا.

أما كلمة ﴿الْأَنْبَاءُ﴾ فُفَسِّرَتْ من قبل البعض بأنها الحجج والمعاذير؛ أي أن المسؤولين عن مواقفهم السلبية تجاه المرسلين ستختلط عليهم ذاكرتهم، فلا يعودون يفقهون شيئاً، ولا يقدرّون على تبرير مواقفهم هناك كما هم يلهجون بها في الدنيا، وليس أمامهم إلا الإعراف بما اجترحوه، فسحقاً لأصحاب السعير. لقد كانوا في دار الدنيا سليطي الألسنة لا يببخسون بكلمات السوء التي كانوا يواجهون بها المرسلين بكل وقاحة.

(١) سورة الإسراء، آية ٧٢.

## بصائر وأحكام

لقد لهجت ألسنة المشركين بالمزيد من المعاذير، ويوم  
القيامة لا يملكون قدرة على إلقائها، لأن الأنباء قد عميت عنهم، فلم  
يعد أحد يعرف عنها شيئاً. وهكذا على الإنسان أن يبحث عن الحق،  
ولا يتشبث بالمعاذير التي لا تغنيه غداً شيئاً.



## عسى أن يكون من الفلحين

﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (٦٧)

\*\*\*

### تفصيل القول

لكي لا ينغلق قلب العصاة، ولا يستبد بهم اليأس، فإن ربنا المتعال يفتح نافذة من نوره أمامهم، ألا وهي نافذة التوبة. فيشير سبحانه إلى أن من عصى واتخذ في وقت ما شريكاً من دونه في الدنيا، فتاب فله إن شاء الله أن يمر إلى الخلاص عبر منفذ التوبة.

وللتوبة مراحل:

الأولى: الندم من الذنب، وهي في الحقيقة أهم مرحلة، والسبب في ذلك أن لكل ذنب دواعيه وأسبابه، والتحرر منها يمهد للندم. وأتى للإنسان أن يتحرر منها، إلا بجهد كبير، وربما بتضحيات.

يضاف إلى ذلك، أن النفس الأمّارة بالسوء تسوّل للإنسان، والشيطان يوسوس إليه، بل قد تتحول ممارسة الذنب لدى البعض إلى ثقافة، بل وربما إلى أصنام مقدسة يخشى المساس بها والتعرض لها، وإلا كيف يمكن تصور جماعة تعكف على الأوثان التي لا تضر ولا تنفع طول حياتهم، ويمارسون طقوساً مجهدة لها.

وهكذا يعتبر الإقرار بالذنب والندم منه نقلة نوعية في حياة البشر.

بلى؛ إن ما يعين المذنب، ذلك النور الذي أوقده الرب في كل قلب، مما يسمى بالنفس اللوامة، أو الضمير والوجدان والعقل. إنه نور لا ينطفئ مهما أوغل المرء في الجريمة. إنه يؤثّب ويوخزه. إنه حقاً نعمة عظيمة على الإنسان أن يحمد الله عليها في كل حين.

وقد يهيئ ربنا تبارك وتعالى للفرد النادم أجواء خارجية مميزة تشجعه على التوبة واغتنام الفرصة المتاحة للتحرر من دواعي الذنب.

الثانية: الإيمان، وهو تسليم القلب لأمر الرب تعالى. وهذه المرحلة هي الوجه الإيجابي للتوبة، بينما المرحلة الأولى الوجه السلبي، وهكذا قال ربنا:

١ - ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ ﴾

وبعد أن يتوجه التائب إلى ربه، يؤمن بالحق وبكل ما أمر به الله سبحانه. ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة العمل الصالح، الذي هو دليل صدق التوبة والإيمان.

٢ - ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾

ومن العمل الصالح، بذل المزيد من الجهد في إصلاح ما أفسده المرء بالذنب.

### ٣- ﴿فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾

قال البعض بأن كلمة عسى في القرآن تفيد التأكيد، لأن كلام الله لا يحتمل التردد، كقول الشخص الجواد (إن شاء الله) إذا طلب منه أحدهم شيئاً.

ولكننا نستفيد من هذه الكلمة أمراً آخر، حيث لا يجدر بالتائب بعد إيمانه وفعله للصلحات، أن يستهين بذنوبه السالفة، فلا يعود لارتكابها اعتماداً على التوبة من جديد، بل عليه أن يعقد العزم على عدم العود إلى ما فسد من حياته.. وهو إذ ذاك يكون حرياً بالانخراط في سلك المفليحين.

ثم إن هناك شروطاً للتوبة، وشروطاً للإيمان، وشروطاً لصحة العمل.. ﴿فَعَسَىٰ﴾ في هذا المعنى تتضمن ضرورة تحقق الشروط لبلوغ درجة الفلاح.

ولعل في هذا السياق إشارة إلى أن التائب من الذنب والمؤمن العامل للصلحات لا يرجع إلى ما قبل ارتكابه للذنب فقط؛ أي لا يكون كمن لا ذنب له فحسب، بل يؤمل أن يسمو إلى حيث مقام المفليحين؛ أي أن التوبة ليست مجرد مغفرة للذنب، بل قد يكون فيه أبعد من ذلك إلى حيث الانضمام لدرجة المفليحين.

## بصائر وأحكام

١- لا ينبغي للتائب من ذنبه إذا آمن وعمل الصالحات أن يستهين بذنوبه، إنما عليه أن يعقد العزم على عدم العود إليها أبداً.

فلا يقول أذنب وأتوب، لأن للتوبة شروطاً قد لا تتوفر لديه.

٢- من تاب من ذنوبه وآمن وعمل الصالحات، تتوفر لديه فرصة السمو إلى درجة المفلحين بإذن الله تعالى، فيكون أسمى درجة من ذي قبل.





## ما كان لهم الخيرة

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾  
﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٦٨)

\*\*\*

### من الحديث

عن أنسٍ قال: «سألت رسول الله ﷺ عن معنى قوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؟ قال ﷺ: إن الله تعالى خلق آدم من طين كيف شاء. ثم قال: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ إن الله تعالى اختارني وأهل بيتي على جميع الخلق، فانتجبتنا، فجعلني الرسول وجعل علي بن أبي طالب الوصي. ثم قال: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ﴾ يعني ما جعلت للعباد أن يختاروا ولكني أختار من أشاء، فأنا وأهل بيتي صفة الله وخيرته من خلقه. ثم قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يعني الله منزّه عما يشركون به كفار مكة. ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ﴾ يا محمد ﴿مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ﴾ من بغض المنافقين

لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿مِنَ الْحُبِّ لَكَ وَلِأَهْلِ بَيْتِكَ﴾<sup>(١)</sup>.

رُوي أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: «فَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ خَلَقَ الْخَلْقَ وَاخْتَارَ خَيْرَهُ مِنْ خَلْقِهِ وَأَصْطَفَى صَفْوَةً مِنْ عِبَادِهِ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فَأَمَرَ الْأَمْرَ، وَشَرَعَ الدِّينَ، وَقَسَمَ الْقَسَمَ عَلَى ذَلِكَ، وَهُوَ فَاعِلُهُ وَجَاعِلُهُ، وَهُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ الْمُصْطَفَى، وَهُوَ الْمُشْرَعُ، وَهُوَ الْقَاسِمُ، وَهُوَ الْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ، لَهُ الْخَلْقُ وَلَهُ الْأَمْرُ وَلَهُ الْخَيْرَةُ وَالْمَشِيئَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْمُلْكُ وَالسُّلْطَانُ...»<sup>(٢)</sup>.

## تفصيل القول

ما هي خشية النجاة إذا تعاضمت أمواج الثقافة الشركية وتعددت مذاهبها، وكل يدعي أنه الحق؟

إنها الإعتصام بحبل الله، والتمسك بما أمر الله سبحانه من الإيمان به وبرسوله الذين اختارهم للبشر، ومن دون ذلك التيه في مفازة الضلالة.

ثلاثة حقائق تدعونا إلى هذه الحقيقة:

١ - الله هو الذي خلق، فهو مالكننا، وعلينا ألا نتخذ فيما يملك من رقابنا سبيلاً دون رضاه، وقد قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

فبيده الخلق، وهو قد اختار ما يخلقه، وقد خلقك أنت فضلاً من عنده بين ملايين فرص الخلق.

(١) الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، ابن طاووس، ج ١، ص ٩٧.

(٢) الغارات، إبراهيم بن محمد الثقفي، ج ١، ص ١٩٥.

٢- وكما قد اختار أصل الخلق، يختار لهم من يشاء من عباده المصطفين. قال الله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾.

فالخالق الذي لم ولن يحدد شيئاً مشيئته في أصل الخلق، هو الذي يختار، ولم ولن يحدد مشيئته في الخيرة شيء.

٣- أما نحن البشر، فقد فوض إلينا ربنا أن نختار ما نطعم، وما نشرب، وكيف ننام، وإين نعيش.. ولكنه لم يفوض إلينا كيف نختار القادة حسب أهوائنا. إنه إستأثر لنفسه هذا الأمر، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾.

وقد فشلت خيارات العباد لقياداتهم فشلاً ذريعاً عبر التاريخ وإلى اليوم، وكلما اختاروا قيادات تبين لهم أنهم خونة إلا ما ندر، ثم تلاعنوا فيما بينهم، وتلاوموا.

٤- ثم إن هذا الإنتخاب من صلب حقيقة التوحيد، فمن نازع ربنا فيه فهو مشركٌ به غيره، وربنا سبحانه لا شريك له، وهو الأعلى فلا يشابهه شيء من خلقه. قال ربنا: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

## بصائر وأحكام

بما أن الله تعالى قد خلق ما يشاء، فهو يختار من يشاء. أما نحن، فلا حق لنا في الإختيار. والولاية الربانية من صلب التوحيد، فمن تحدّاها، فقد نازع ربنا سبحانه أحديته، وتعالى الله عما يشركون.



## وربك يعلم ما تُكنُّ صدورهم

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكْنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٦٩﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

حينما يذكرنا القرآن الحكيم بحقيقة هامة، أو بحكم بالغ الصعوبة على الإنسان، فإنه يذكرنا بأن الله تبارك وتعالى يعلم ما في الصدور. لماذا؟.

فيما يبدو لي أن الإنسان ليس كأبي موجود آخر بسيط الخلقة، إنما هو مركب في أصل كيانه. ألم يقل ربنا سبحانه عنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

حتى لكأن كل خلية من كيانه تحمل خليطاً من الحق والباطل، لكي يُبتلى، ولكي يقوم هو بمضاء عزمه بتغليب جانب الحق على

(١) سورة الإنسان، آية: ٢.

جانب الباطل .

وبما أن الحق قد يتشابه والباطل ، ويقع الفرد بين عصرين :  
عصرٍ من جانب فطرته الإلهية ، وعصرٍ من قبَلِ ضغوط هواه ، فماذا  
يصنع ؟ .

قد تراه يدس هذه الحقيقة ويجهد في إسكات صوت وجدانه ،  
ويحاول إخفاء الحقائق في طيات ذاته بخداع نفسه .

ولعل الآية الكريمة تشير إلى هذه الحقيقة ، إذ يقول ربنا : ﴿وَكَانَ  
الْإِنْسَانُ أَكْثَرَشَيْءٍ جَدَلًا﴾<sup>(١)</sup> ، ولكنه يغفل عن الحقيقة العظمى ،  
وهي أنه عز وجل خالقه ، وأنه يحيط علماً بما يصدر عنه من أقوال  
وأفعال ، ومطلع على كل خفاياه وخبائاه التي يخفيها المرء عن غيره ،  
بل يحاول إخفاءها عن نفسه أو يحاول تناسيها بشتى السبل .

ومن أجل ذلك نجد الإنسان بحاجة دوماً إلى أن يزداد معرفة  
بهذه الحقيقة : إن الله يعلم ما توسوس به نفسه ، وإنه أقرب إليه من  
حبل الوريد ، عليه أن يجاهد حتى يبلغ درجة اليقين في أن هناك رقيباً  
عليه وشاهداً على أعماله بعد شهوده على نواياه . فهو إذا علم بإحاطة  
الرب بكل كيانه ، تخلّص من الكثير من العقد النفسية التي تؤدي به  
إلى الغفلة والجهل ، وتمكّن الشيطان من التلاعب به وسوقه إلى  
حيث سخط الرب القدير .

بلى ؛ إن الصدور التي هي مقار لوساوس الشيطان وضغوط  
الشهوات ، هي أيضاً محاطة بعلم الرب سبحانه ، فما المبرر لأن  
يوغل ابن آدم في مخادعة نفسه ؟ فحتى لو تمكن من خداع نفسه ،

---

(١) سورة الكهف، آية: ٥٤ .

فهل يقدر على مخادعة الله عز وجل؟.

كلا؛ بل إن ما يضمه الإنسان لا يبقى إلى الأبد في خفاء، بل سوف يظهره الرب، وكما قال الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَاتٍ لِسَانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»<sup>(١)</sup>.

فإذا كان المضمّر شأنه الظهور، فما بالك بما من شأنه العن والعلانية؟.

وقد قال ربنا سبحانه: ﴿يُعْلِنُونَ﴾، إشارة بتجريدها عن حرفي التأخير (س سوف) إلى التأكيد على الاستمرار. ولعله أيضاً إشارة إلى أن ما تكنه الصدور سوف تظهر عاجلاً أم آجلاً.

### بصائر وأحكام

لأن الإنسان قد خلق من نطفة أمشاج بهدف الإبتلاء، فإنه كان أكثر شيء جدلاً؛ فتراه يدس وجدانه، ويخادع نفسه، غافلاً عن أن ربه محيط علماً بما يكنه في صدره أو يظهره في العن. فلماذا المخادعة لذاته أو للآخرين؟.

(١) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٢٦ .



## له الحمد في الأولى والآخرة

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ  
الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٧٠)

\*\*\*

### تفصيل القول

يبدو أن هذه الآية تتضمن ثلاثة محاور أساسية للولاية الإلهية المتمثلة في المصطفين من عباده:

١- هو الله سبحانه الذي يلجأ إليه المتحيرون، وقد أوضحت هذه الصفة (ملجأ المتحيّر) علماً خاصاً بين أسمائه الحسنی. إنه تعالى حين يوحد، فهذا الاسم حيث يكرر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، لماذا؟. لعل هذا الاسم هو الأقرب إلى أفئدة البشر، وإلى تجاربهم اليومية. فكلما أحاطت بالإنسان الأخطار، توجه إليه، حيث انقشعت عن بصيرته سحائب الشرك، وانحسرت دون وجدانه وساوس

الهوى، وانفرد قلبه بربه، حيث يعرفه يومئذ بأسمائه الحسنى .

وإذا كانت الآية السابقة ذكّرنا بأن الخالق لما يشاء، هو الذي يختار لعباده من يشاء من المصطفين، فهذا هو الحق، وهو الواقع كذلك. فإننا في هذ الآية نعرف أن من أصطفي، إنما كان من قبيل مَنْ نلجأ إليه عند الشدائد، بل ويلجأ إلى من يختاره لنا من عباده الصالحين عند الكربات أيضاً، ليكونوا شفعاء بين يديه.

قال الله سبحانه: ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ .

٢- ثم جاءت هذه العبارة في هذا الإطار للتبيين بأن الولاية الربانية التي فوّضت لمن اختارهم الرب الكريم، إنما هي في مصلحة البشر بالرغم من صعوبة الإذعان لها. فربنا يُحمد على إختياره لنا الولي.

وقال تعالى: ﴿ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴾ .

فإذا ما وجد الفرد نفسه حائراً تحت تراكم ضغوط الحياة ووساوس الشيطان والنفس الأمارة بالسوء، فله أن يرجع إلى من إختاره له الرب، حتى ينجيه.

٣- ثم إنه سبحانه الحاكم الحكيم، وعلينا أن نرجع إلى من اصطفاه في القضاء، وفيما شجر بيننا من اختلاف.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

وما دام الحمد له وحده على وجه الاستقلال والذاتية، فالملجأ والحكم والمرجع إليه أيضاً.

وضمن هذه المحاور تتضح لنا صورة ناصعة عن التوحيد الحق في العقيدة والسلوك.

## بصائر وأحكام

ثلاث كلمات توضح حقيقة التوحيد:

أولاً: إنّ الله لا إله إلا هو، فلا ملجأ للعباد إلا إليه، فلا بد لهم أن يسلموا لمن إختارهم، ليرضى بهم شفعاء لأمته بين يدي رحمته.  
ثانياً: إنّ الله حميد، فولايته التي يملكها في الأرض عباده المصطفون خير للناس؛ خير في الدنيا، وخير في الآخرة.  
ثالثاً: إنّ له الحكم، فلا بد أن يرجع العباد إلى أوليائه لحل خلافاتهم والقضاء فيما شجر بينهم.



## أفلا تسمعون؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧١)

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام - في حديث الإهليلجة، بعد أن بين الدلالات على إبطال الحواس ووجود معلمها الذي علمها عباده-: «لأنَّ العَزِيزُ الجَبَّارُ الَّذِي دَبَّرَهَا، وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا، يَسْبَحَانِ فِي فَلَكَ يَدُورُ بِهِمَا، ذَاتَيْنِ يُطْلِعُهُمَا تَارَةً وَيُؤْفِلُهُمَا أُخْرَى، فَبَنَى عَلَيْهِ الْأَيَّامَ وَالشُّهُورَ وَالسِّنِينَ الَّتِي هِيَ مِنْ سَبَبِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، وَالرَّبِيعِ وَالخَرِيفِ، أَرْمَنَةٌ مُخْتَلِفَةٌ الْأَعْمَالِ، أَصْلُهَا اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، اللَّذِينَ لَوْ كَانَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا سَرْمَدًا عَلَى الْعِبَادِ لَمَا قَامَتْ لَهُمْ مَعَاشٌ أَبَدًا، فَجَعَلَ مُدَبِّرٌ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَخَالِقُهَا النَّهَارَ مُبْصِرًا، وَاللَّيْلَ سَكَنًا»<sup>(١)</sup>.

(١) بحار الأنوار، الشيخ محمد باقر المجلسي، ج ٣، ص ١٩١.

## تفصيل القول

مشكلة المشركين الدائمة أنهم ينظرون عادة إلى التفاصيل ويهتمون بها، فيما يتجاهلون الحقائق الكبرى. ومثلهم كأن يستضيفك أحدهم فيعاملك باحترام بالغ ويوفّر لك كل الخدمة من سكنى ومطعم ومشرب وحماية.. ثم إن ولده الصغير يأتيك بشربة ماء واحدة لم تكن بحاجة إليها، فتتوجه إلى هذا الصغير بكل إهتمامك شكراً، وتتجاهل حقيقة أن وجودك في الدار وما تبعه من أمور مهمة جداً يعود الفضل فيه إلى صاحب الدار دون ولده الصغير. وهكذا المشرك تراه مثلاً يزعم أن دواء الطبيب الذي ناوله في حال مرضه هو الذي شفاه دون خالق هذا الدواء، وهو الذي جعل فيه قابلية الشفاء وأذن في شفائه.

إن هذا لعمرى عين الجحود لمقام الرب الكريم، وإنكار الفضل النازل إلينا من جانبه.

فيا ترى من غير الله قدر الزمن ليلاً ونهاراً ليتناسبا واحتياجات الخلق، إذ لم يتركهم يعيشون في ظلمات سرمدية، ولم يتركهم في بحبوحه من الضياء الأبدي يسلبهم راحة المنام؟.

فَمَنْ غير الله الواحد الأحد بقادر على أن ينعم على البشرية وعلى ما في الأرض بأسرها بهذه النعمة العظمى، وهي نعمة الضياء نهاراً، ونعمة الظلام في الليل؟.

إنه الله لا إله غيره، وإليه يرجع الحائرون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾، ونستوحي من الآية الكريمة أن نعمة الضياء

التي تغمر البشر هناءً وراحة، هي من آفاق صفة الإلهية لربنا سبحانه.  
﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ونستفيد من هذه الكلمة أن مجرد سماع  
هذه الآية كافٍ في دعوة البشر إلى ربه.

### بصائر وأحكام

إن المشركين يركزون إهتمامهم بالأمر الثانوي، ويتجاهلون  
الحقائق الكبرى، فيبعدهم ذلك من معرفة ربهم. إن النعم الكبرى  
لربنا تعالى إذا سمعناها ووعيناها، اقتربنا منه ومن أسمائه الحسنی.



## أفلا تبصرون؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى  
يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ  
أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾ (٧٢)

\*\*\*

## تفصيل القول

وعى الحقائق الكبرى المحيطة بنا، يجعلنا أعرف بربنا المدبّر  
لخلقه، وبالتالي نقرب من فهم الخليقة وعرفان أنفسنا.  
ولا تني آيات الذكر توجهنا إلى النظر العميق في حركة الزمن،  
واختلاف الليل والنهار، وبالتالي الإقتراب من وعى تلك القدرة  
الواسعة التي تجعل النهار بكل عنفوانه القاهر، والشمس بكل نورها  
الباهر، تنسلخ عن الأرض ليعود الظلام بكل سكينته وهيبته. سبحان  
الله!.

١ - ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

ويومئذ ذلك النهار السرمدي لا يكون لنا، بل علينا، وفي غير منفعتنا.

٢ - ﴿مَنْ إِيَّاهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

ويومئذ أين نجد تلك السكينة الودیعة؟.

٣ - ﴿أَفَلَا تَبْصُرُونَ﴾.

بلى؛ نبصر تأجج النهار وتلجج الليل دون أن نتبصرهما. نبصرهما بظاهر البصر، ولا نتبصرهما بواقع الفكر.

وفي لحظة تجلُّ للحقيقة، إذا انجلت عن قلوبنا غشاوة الغفلة، وبصرنا الحقائق بلا حجاب التعمُّد، بل ببراءة نظر الباحث، آنئذ لا نبصر حقيقة اختلاف الليل والنهار فحسب، بل نبصر أيضاً نور ربنا وهو يسليخ من الليل النهار، فإذا بنا نعيش في ظلام محيط.

## بصائر وأحكام

نحن بحاجة إلى أن نبصر الحقائق الكبرى ببراءة ومن دون حجب التعمُّد والغفلة، لعلنا من خلالها نبصر قبساً من نور الرب تعالى الذي قدرها ويدير أمرها.



## الليل والنهار من رحمة الله

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٣).

\*\*\*

### من الحديث

قال الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في دعاء له عند الصباح والمساء: «فَخَلَقَ لَهُمُ اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ مِنْ حَرَكَاتِ التَّعَبِ وَنَهَضَاتِ النَّصَبِ، وَجَعَلَهُ لِيَأْسًا لِيَلْبَسُوا مِنْ رَاحَتِهِ وَمَنَامِهِ، فَيَكُونَنَّ ذَلِكَ لَهُمْ جَمَامًا<sup>(١)</sup> وَقُوَّةً، وَلِيَتَأَلَّوْا بِهِ لَذَّةً وَشَهْوَةً. وَخَلَقَ لَهُمُ النَّهَارَ مُبْصِرًا لِيَتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ، وَلِيَتَسَبَّبُوا إِلَى رِزْقِهِ، وَيَسِرَّ حُوفًا فِي أَرْضِهِ، طَلَبًا لِمَا فِيهِ نَيْلُ الْعَاجِلِ مِنْ دُنْيَاهُمْ، وَدَرَكَ الْآجِلِ فِي آخِرَاهُمْ؛ بِكُلِّ ذَلِكَ يُصْلِحُ شَأْنَهُمْ، وَيَبْلُو أَخْبَارَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

(١) جماماً: راحة.

(٢) الصحيفة السجادية، الدعاء السادس.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى مُوسَى عليه السلام يَا مُوسَى اشْكُرْنِي حَقَّ شُكْرِي. فَقَالَ عليه السلام: يَا رَبِّ؛ وَكَيْفَ أَشْكُرُكَ حَقَّ شُكْرِكَ، وَلَيْسَ مِنْ شُكْرٍ أَشْكُرُكَ بِهِ، إِلَّا وَأَنْتَ أَنْعَمْتَ بِهِ عَلَيَّ؟. قَالَ (عَزَّ وَجَلَّ): يَا مُوسَى الْآنَ شَكَرْتَنِي حِينَ عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مِنِّي» (١).

## تفصيل القول

السياق القرآني هنا يهدينا إلى سبل اقتلاع جذور الشرك من النفس، ومن تلك الجذور تجاهل نعم الله الكبرى، بأن يلتفت الإنسان إلى سبل وصول النعم إليه والغفلة عن المنعم الحقيقي، حيث إن مرد ذلك يكون إلى إتخاذ تلك السبل دون مصدرها ومسخرها أنداداً من دون الله.

أليس من التغابن للبشرية أن يعيش الواحد منهم سبعين سنة في الدنيا، حيث تتوافر له فرص التعرف على ربه ويضيّعها جميعاً، فلا يجد فرصة أخرى وإلى الأبد لمعرفته سبحانه، لأن من يجهل ربه في الدنيا يبقى يجهله في الآخرة أيضاً، ويخسر بذلك خسراناً ميبئاً. إنه ليحشر أعمى، ويُنسى كما نسي الآيات ولم يستفد منها ولم يتخذها وسيلة للتعرف على ربه.

قال الله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتْنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿٢﴾.

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٩٨.

(٢) سورة طه، آية: ١٢٤-١٢٦.

١- ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾

أي: ليتذكر الإنسان أن النعم المتوالية عليه والتي يراها ماثلة أمام عينيه مبدؤها الرحمة الإلهية، فهي تنفعه ولا تضره، بل هي قد خُلقت مسخرة له.

٢- ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾

وبالتالي؛ فإن تنوع الآيات وتفاوت الفوائد والمنافع فيها، كاختلاف الليل والنهار في السكنى والراحة وابتغاء الفضل والرزق.. يعود على الإنسان بالنفع من الناحية المادية، وليكون تذكرة ودافعاً للإيمان والتفكير بربوبية المنعم المفضل.

والتعبير بـ ﴿جَعَلَ﴾ يهدينا إلى أن ذلك كان بتقديره تعالى، وكان بهدف توفير السكنية في الليل والنشاط في النهار.

وكما أنه تعالى يذكرنا بنعمة الليل وما فيه من منافع، كذلك فإن النهار وضيأؤه يناسب الإنسان في طلب الرزق، لكي لا يركن إلى الخمول.

فالنوم والسكنية رحمة، والقيام والحركة رحمة أيضاً، وعلى الإنسان أن يستوعب حكمة النعم لكي يتذكر ربه، فلا يغفل عنه بشركه.

٣- ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

شكر النعم نعمة كبرى، لأنه يبعث الفؤاد إلى الرضا ثم الإبتهاج، ولذلك فعلى الإنسان إتخاذ الآيات الإلهية ونعمه وسيلة الشكر.

وبالإضافة إلى أنّ الشكر راحة نفسية وغذاء روحي، فهو كذلك قاعدة انطلاق لطلب المزيد من النعم المادية والمعنوية، لأنه ينمي الروح الإيجابية ويزيد النظرة التفاؤلية لديه.

### بصائر وأحكام

إن تنوع المنافع، كاختلاف الليل والنهار في السكنى والراحة وابتغاء الفضل والرزق، بالإضافة إلى أنه يعود على الإنسان بالنفع من الناحية المادية، يبعثه نحو التفكير والتذكر ومن ثمّ الشكر الذي يمنحه المزيد من الرضا والراحة ويزوّده بالروح الإيجابية.



## أين شركائي؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ  
تَزْعُمُونَ﴾ (٧٤)

\*\*\*

## تفصيل القول

في الآية الخامسة والستين من هذه السورة المباركة كلمة قريبة مما في هذه الآية. هناك قال ربنا المتعال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه الآية تصدق تلك وتفسرها.

فإجابة الكافرين عند سؤال الله تعالى لهم تشير إلى أن إجابتهم للمرسلين كانت سلبية، حيث إنهم اتخذوا من دون الله شركاء. وهكذا القرآن يصدق بعضه بعضاً.

١- ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ﴾

سبق منا القول إن كلمة نداء تدلنا على معينين:

الأول: أنهم كانوا بعبيدين عن الحق، فهم يستحقون النداء وليس النجوى.

والثاني: أن النداء يتم أمام الملاء والناس شهود.

٢- ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُفِّرُوا كُفْرًا﴾

والسؤال يتضمن الإجابة، إذ لا شك أن الشركاء المزعومين لا حول لهم يومئذ ولا طول، بل هم وبال على المشركين بهم. وعموماً المساءلة بذاتها تكفي لهز ضمائرهم، لكي يتركوا اليوم الشركاء، الذين لا يزيدونهم إلا خساراً.

### بصائر وأحكام

على الإنسان أن يعرف أن مواقفه هنا تعرّضه للمساءلة يوم القيامة، وعلى رؤوس الأشهاد، فلا يسترسل فيها من دون تفكير وحكمة.



## ونزعنا من كل أمة شهيداً

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ  
فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٥)

\*\*\*

### من الحديث

في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله:  
﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، «يَقُولُ عليه السلام: مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْ هَذِهِ  
الْأُمَّةِ إِمَامَهَا»<sup>(١)</sup>.

### تفصيل القول

لما كان حديث المشركين حديث الضلال، فإنها تعمى عنهم  
الأنباء، فلا يجيبون ربهم، لأنهم لا جواب لهم. وهذا السكوت هو

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٤٤.

شهادة ضدّهم، ولكن هناك شهادة أخرى ضدّهم.

## ١- ﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾

لما جعل الله تعالى الحق حقاً وأثبته في اللوح المحفوظ وفي ملكوت السماوات، فقد جعل للحق شهداء وحججاً بالغة على الحق.

فمن هم هؤلاء الشهداء؟.

إنهم عديدون، فقد تكون الجوارح شهوداً، وقد يكون ما في البيئة المحيطة بالإنسان شهوداً، وقد تصدر الشهادة عن بشر آخرين.. فقد يشهد الإمام المعصوم على أمة من الناس، كما يمكن أن يُستدعى حاكم ظالم لأداء الشهادة على نفسه وعلى غيره من تابعيه، بل حتى أن الآلهة المزيفة التي عبّدت من دون الله تعالى ستشهد على أتباعها. كما أن الشيطان سيدلي بدلوه في موضوع الشهادة وينكر أن يكون قد أجبَر أحداً على الانصياع لوساوسه الشريرة.

وبالتالي؛ فإن من يكذب ويقول في الدنيا إنه لم يبلغه الحق، يفتضح بأقوال الشهود الكثر يوم القيامة.

وانتزاع الشهود يتم عبر فصلهم عن موقفهم، ودفعهم إلى منصة الشهادة، فلا يسعهم إلا أن ينصاعوا ويشهدوا بالحق.

## ٢- ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾

يقال للشهود: إشهدوا بالحق شهادة تصبح برهاناً ساطعاً بوجه العصاة والمشرّكين.

كما يقال للمشرّكين المصعوقين بشهادة الشهود ضدّهم: أين ما بررتم به عبادتكم لغير الله عز وجل؟.

### ٣- ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَآكَأَ نُؤَيْفَاتِهِمْ﴾

لكلمة ﴿ضَلَّ﴾ إيحاءٌ معين، حيث يدل على أنهم قد بحثوا عن البرهان، ولكن لم يجدوه.. بحثوا عن الآلهة المزعومة فلم يجدوا لهم أثراً أو وجدوهم في ورطة أشد من ورطتهم. وهكذا وجدوا أنفسهم في حيرة بعد أن تخلّى عنهم ما كانوا يعبدونه من دون الله تعالى، وبعد أن تبددت ثقافتهم الباطلة التي طالما تشبثوا بها في دار الدنيا.

### بصائر وأحكام

للحق أكثر من شهادة، وأكثر من شهيد. والشهداء يوم القيامة يُدْعَوْنَ للشهادة ضد المشركين، ويومئذ يضل عنهم الشركاء المزعمون، وتتبدد الثقافات الباطلة التي كانوا يبررون بها شركهم.



## إن الله لا يحب الفرحين

﴿ إِن قَلُونَ مَا إِن مَفَاتِحَهُ، لَنَسُوا بِالْعَصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ، لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ (٧٦)

\*\*\*

### من الحديث

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَسْرَعَ الْخَيْرِ ثَوَابَ الْبُرِّ، وَإِنَّ أَسْرَعَ الشَّرِّ عُقُوبَةَ الْبُغْيِ..» (١).

وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «فِي كِتَابِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَمُوتُ صَاحِبُهَا أَبَدًا حَتَّى يَرَى وَبِالْهَنِّ؛ الْبُغْيُ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَالْيَمِينُ الْكَاذِبَةُ يُبَارِزُ اللَّهُ بِهَا..» (٢).

(١) الخصال، الشيخ الصدوق، ص ١١٠ .

(٢) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٤٧ .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام - في حديث -:  
«... وَالطَّمَعُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: الْفَرَحِ، وَالْمَرَحِ، وَاللَّجَاجَةِ، وَالتَّكَاثُرِ.  
فَالْفَرَحُ مَكْرُوهٌ عِنْدَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وقال عليه السلام: «الْفَرَحُ بِالدُّنْيَا حُمُقٌ»<sup>(٢)</sup>.

## تفصيل القول

لماذا ورد في السياق القرآني هنا وفي ختام سورة القصص  
الحديث عن قارون مفصلاً، رغم الإشارة إليه في بعض المواطن؟.  
ترى ما هي علاقة هذا الحديث بالهدف الأساس من سورة  
القصص؟.

الإجابة حسبما يبدو لي والله العالم أن سورة القصص، كما  
سبق وأن قلنا سلفاً في بدايتها تحدثنا عن الحركة الرسالية التي تبدأ  
من إرادة عليا لرب العزة بأن يمكن للمستضعفين في الأرض ويرى  
أعداءهم من أمثال فرعون وهامان منهم ما كانوا يحذرون.

أما هنا في ختام السورة يحدثنا ربنا عن مرحلة ما بعد القضاء  
على السلطة الفرعونية، وما فيها من فتن عظيمة قد لا تكون بأقل  
فتنة على الفاتحين المنتصرين مما سبقها، وذلك لأنه قبل الانتصار  
كانت فتنة مَنْ كان مغلوباً مقهوراً فتنة واحدة تتمثل في مواجهة نظام  
الطغيان والفساد، بينما تعدد الفتن أمامه بعد الانتصار، كفتنة الإقبال  
على الحياة، وفتنة السلطة، وربما قد تحصل هناك فتن الصراع مع

(١) الكافي، الشيخ الكليني، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم ٢٥١٥.

الأعداء الجدد المتمثلين في المنافقين، وبالتالي فتنة الإستقامة على طريق الحق من دون طغيان. فكم من مستضعف قاوم الطغيان دهرًا، فإذا انتصر على الطغاة وحكم البلاد أمسى بنفسه من أعتى الطغاة؟.

وهذه الفتن وطبيعة الموقف منها، تجد لها نموذجاً في نهايات هذه السورة المباركة، والتي تبدأ بالحديث عن مثل تاريخي بالغ الوضوح، مثل قارون الطاغية بماله ضد الرسالة.

وكان في تاريخنا المزيد من أمثلة قارون الذين كافحوا الجاهلية الأولى ولكنهم سقطوا في فتنة الجاهلية الثانية حينما مالوا إلى الحزب الأموي، كما فعل طلحة والزبير وسمرة بن جندب وآخرون.

دعنا إذًا نتأمل في مصير قارون، لكي نعتبر به ولا نسقط كما سقط في موجات الإغترار.

١- ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مَوْسَىٰ﴾

سبق لقارون أن واجه الصعوبات مع موسى وشاركه الآلام، وربما في ظرف العمل السري عند مجاهدة فرعون.

بلى؛ إنه كان من قوم موسى المستضعفين، وواجه ذلك البلاء العظيم الذي نزل بهم، ولكن ماذا حدث له؟ وإلى أي الاتجاهات آلت شخصيته؟.

٢- ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾

أي: أساء إليهم وطغى عليهم، إذ انكب على حطام الدنيا بحثاً، وراح يطلب أكثر من حقه المشروع. إن ذلك أساس البغي،

حتى أنه نافس على السلطة في مقارعة الولاية الإلهية المتمثلة في النبي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وهكذا تمرد على الشرعية، وحاول أن يؤسس تياراً نفاقياً لمواجهة التيار الرسالي في قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وحاول إستثمار أجواء الحرية والأمن، وحتى نشوة الإنتصار عند بني إسرائيل بعد العبور من البحر، كما حاول إستغلال جهود المؤمنين المستضعفين، ثم التسلط عليهم بما آتاه الله تبارك وتعالى من الكنوز.

٣- ﴿وَأَيُّكُمْ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾

وهذه الإشارة كافية لمعرفة مدى تراكم الثروة عنده، وهي لعمرى جديرة بهد أعظم حليم ولو كان بمثابة جبل من الصمود، لولا أن يتداركه ربه بأيده سبحانه.

وهنا جاء دور الناصحين:

٤- ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

ماذا يعني الفرح، ولماذا نهينا عنه؟.

الفرح بنعمة من نعم الرب، يعني الإصابة بالغرور بها والبطر، وذلك عبر ظلم الآخرين والتكبر عليهم، بل وحتى التكبر على ولاية الله رب العالمين، حيث يشعر الإنسان يومئذ بأنه لا حاجة به بعد ذلك إلى ربه الغني المتعال.

لقد كانت هذه نصيحة أولي البصائر النافذة لقارون الذي رأوه يسقط في الحفرة السوداء، قالوا له: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

ومن ختام الآية نستفيد أن الفرحين سوف يشكلون تياراً

مضاداً للرسالة، ولا يبقى الشخص الفرح وحده، والله لا يحبهم لأنهم يخالفون سننه وما أمروا به من طاعة الولي من عنده.

## بصائر وأحكام

من كان مستضعفاً ومغلوباً مقهوراً، تكون فتنته واحدة، متمثلة في نظام الطغيان. ولكن بعد ذلك تتعدد الفتن أمامه؛ كفتنة الرغبة في حطام الدنيا، والإقبال على متع الحياة الزائلة، ومن ثم خذلان الولاية عند مواجهة الأعداء الجدد المتمثلين في المنافقين، وأخيراً الصمود والإستقامة على طريق الحق.



## إن الله لا يحب المفسدين

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٧٧).

\*\*\*

### من الحديث

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام «في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، قَالَ عليه السلام: لَا تَنْسَ صِحَّتَكَ، وَقُوَّتَكَ، وَفَرَاغَكَ، وَشَبَابَكَ، وَنَشَاطَكَ أَنْ تَطْلُبَ بِهَا الْآخِرَةَ»<sup>(١)</sup>.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَحَقُّ النَّاسِ بِالْإِحْسَانِ مَنْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَبَسَطَ بِالْقُدْرَةِ يَدَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) الأمامي، الشيخ الصدوق، ص ٢٢٨.

(٢) غرر الحكم ودرر اطلالكلم، حكمة رقم: ٨٨٤٥.

وقال ﷺ: «لَا مَنَقَبَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِحْسَانِ»<sup>(١)</sup>.

## تفصيل القول

١- ﴿وَأَبْتَعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾

الدنيا قنطرة الآخرة، والآخرة هي دار القرار، وهي الحيوان. إذا هكذا وصّى الناصحون قارون أن يتبغى بما لديه رضا الله تعالى، وليُسخر ما آتاه الرب لضمان السعادة الأخروية.. لاسيما وقد تحققت أمنياته في الغنى والثروة وقد زادت على حاجاته بكثير. ونستفيد من هذه الكلمة؛ أن علاج حالة الفرح البغيضة، إنما هو التطلع إلى الآخرة. ذلك أن البشر إذا فقد تطلعه الإيجابي، يتسافل نحو الفساد والبطر، ويستبد به الكبر والتعالي على الآخرين. أما من عرف أن أمامه طموحاً عظيماً لا يزال لم يضمن تحقيقه، فإن نفسه تطمئن وتتواضع، ونشاطه يزداد، ولا يصاب بالشعور بالإمتلاء وبلوغ كل الأمانى.

٢- ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾

إنها الوصية الثانية، وجهها أولو البصائر إلى قارون الذي عميت بصيرته، وترهلت ثقافته، وتشوشت رؤيته للدنيا الزائلة. ويُفهم منها ضرورة إعمال التوازن في التعامل مع النعمة، مضافاً إلى أن نصيب الإنسان من الدنيا أن يستثمرها بالأسلوب القويم لتلبية حاجاته المادية المشروعة والمعقولة، وأن يتصرف بالنعمة

(١) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ٨٧٤٤.

الدنيوية أيضاً على أنها رأس ماله الأخروي إذا هو أتقن التصرف بها. وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ، وَلَا آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ»<sup>(١)</sup>.

ذلك أن الدنيا محطة تزوّد للآخرة، ولا بأس أن يعيش المرء في الدنيا عيشة محترمة، ولكن ليس إلى حد البذخ والإسراف، وبالتالي التمرد على القيم والتعاليم الدينية الحقة.

٣- ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾

في الوصية الثالثة لقارون، وجهه الناصحون إلى الإحسان. ونستفيد من هذه الكلمة:

أولاً: إن مقتضى إحسان الرب إلى العبد، هو إحسان العبد إلى الآخرين. فكما أنك لم تصل إلى هذه الثروة إلا بإحسان الرب إليك، فليكن شكرك على ذلك المبادرة إلى الإحسان إلى الآخرين.

ثانياً: الإحسان يعيد التوازن، ليس إلى المجتمع، وإنما أيضاً إلى نفس المحسن، حيث إنه يمتص الثروة الإضافية التي لو تُركت وشأنها يُخشى عليه منها أن تطغيه وتفسد عليه معيشته.

ثالثاً: الإحسان إلى الآخرين يدعوهم إلى حب المحسن واحترامه والدعاء له، وبالتالي يعود عليه بأكثر مما أعطى. وهذه النتيجة أفضل من حالة الكبر، لأنها تبغضه إلى الناس، بينما الإحسان يحبّه. وبتعبير آخر؛ الإنسان يحب أن يكون وجيهاً، ويزعم أن السبيل إلى ذلك يمر عبر الكبر. كلا؛ إنه يمر عبر الإحسان.

(١) من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق، ج ٣، ص ١٥٦.

٤ - ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾

في حال استخدام النعمة فيما يحبه الله تعالى ويأمر به، فإنها تعود بالنفع المشروع على النفس وعلى الآخرين، وتجسد نجاح صاحبها في الامتحان. أما إذا بقيت حكراً عليه وحده، ولم تتحرك الثروة بأشكالها، كانت فساداً حقيقياً يهوي بصاحبها، كما تحرم الآخرين من الانتفاع بها، وهذا الحرمان هو الفساد بعينه.

ولا ريب أن الفساد ثقافة باطلة ممنوعة تقابل وتناقض ثقافة الإحسان، والتعلم من خلق الله الرفيع.

ونستفيد من الآية؛ أن نهج الإحسان يناقض نهج الفساد، والذي جوهره مخالفة سنن الله في الأرض. ومن سنن الله تعالى توزيع الثروة بعدالة، ومنها عدم تدخل الثروة في شؤون الأمة السياسية والثقافية، لأن الثروة المتركمة قد تتحول إلى محور نشاط الأمة، فيملك صاحبها ناصية السلطة والإعلام والثقافة، وبالتالي يهيمن بغير جدارة على كل مناحي الحياة، فيعيث فيها فساداً.

٥ - ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

وينعكس سخط الرب من المفسدين على الطبيعة برمتها، فتراها تقف موقف الرفض من كل مفسد وتجاه كل حالة فساد وإفساد.

وهكذا تفسد الطبيعة، وتفسد معها حياة المفسدين أنفسهم، حيث ينتشر الخراب في البلاد، ويثور الناس المظلومون، وتتوتر الأوضاع كلها.



## بصائر وأحكام

الدنيا محطة تزود للآخرة، ولا بأس أن يعيش المرء في الدنيا عيشة محترمة، ولكن ليس إلى حد البذخ والإسراف، ومواجهة القيم الدينية، والتي تنتهي إلى نشر الفساد، وهو بدوره يعم حتى المفسدين أنفسهم، فتبطل الحياة برمتها.



## ولا يُسأل عن ذنوبهم المجرمون

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ  
مِنْ قَبْلِهِ مِمَّنَّ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا  
يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٧٨)



## تفصيل القول

١ - ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾

كان تبرير قارون لبغيه وفرحه وعدم إحسانه وإفساده في الأرض، أنه قد حصل على ثرواته وكنوزه بفضل ذكائه وعلمه، بل إنه حصر ذلك بميزاته الخاصة، وأنكر كل العوامل الأخرى التي ساعدته على ذلك، ومنها مثلاً عامل التحول السياسي في الأمة والتخلص من آل فرعون. ناهيك عن عدم إقراره بفضل الله تعالى عليه، وأنه رزقه تلك الثروة بهدف امتحانه، وهكذا.. فرأى لنفسه الحق في أن

يتصرف كيف يشاء، وهكذا استولى عليه المال كلياً وأصبح عبداً  
لثروته. وهاهنا جاء الإنذار الإلهي الصاعق:

٢ - ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً  
وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾

في البدء لا بد من القول إن القرآن المجيد لا يدلنا فقط على  
جذور الفساد التي قد تنخر نفوسنا، وجذور الذنوب التي قد تلوث  
كياننا، وإنما يهدينا أيضاً إلى سبل التخلص منها وطريقة إقتلاعها من  
أصولها.

لقد كان جذر الغرور لدى قارون تجبره، مما جعله لا يستمع  
إلى الناصحين، رغم أن هؤلاء كانوا من قومه. وبالرغم من أنه عاش  
في محيط عقائدي مطلوب، فبسبب ذلك الغرور لم ينتفع به، حتى  
أنه لم يستفد من نشأته في ظل الرسالة، وقریباً من المبعوث بها، ألا  
وهو النبي موسى عليه السلام. فلماذا لم يصمد قارون أمام الغرور فتجبر  
وفسد؟.

لقد نسي قارون ربه، وتغافل عن الحكمة التي كانت وراء  
الإبتلاء بالثروة.

بلى؛ إن طريقة اقتلاع الفساد كانت تكمن في أن يعلم بأن الله  
الذي أعطاه ما أعطاه قد أهلك مَنْ كان قبله مثله، بل كان أقوى وأثرى  
منه وأكثر جمعاً من الرجال، فلم تغنهم الثروة، ولم تسعفهم القوة،  
ولا العديد من الرجال. لماذا؟.

لأنه قد سبغ عكس التيار. وبتعبير آخر؛ واجه سنة الله تعالى  
في خلقه، التي تقضي بسقوط الجهل والظلم والتجبر. لأن الإنسان،

ومهما شعر بالقوة، ومهما جمع الثروة، فإنه يبقى محاطاً بسنن خالقه  
القادر المهيمن.

لقد سقط قارون منذ أن عزم التمرد على إرادة الحق تعالى  
بسبب تجبره وزهوه وفرحه بما أوتي.

لقد كان من الحري بقارون أن يدرس التاريخ والتحويلات  
الحضارية وأسباب انهيار الحضارات والمدنيات وسقوط الملوك  
والطغاة.. ليعرف واقعه وحجمه، فيتجنب الهلاك.

وهكذا حري بنا أن ندرس قصة قارون وما فيها من عبر.

٣- ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾

كل من يفكر في ارتكاب الخطايا يبحث لنفسه عن أعذار،  
أنى كانت واهية قبل الإقدام. وبذلك يتجاوز وخز ضميره، ويتحدى  
خوفه من العقاب، وهكذا تسوّل له نفسه. ولكن هل يُسمح للمجرم  
أن يدافع عن نفسه؟. وهل هو إن دافع ينفع دفاعه شيئاً؟.

### بصائر وأحكام

لكي تتحدى النفس البشرية إغراء الثروة والسلطة، عليه أن  
يتذكر أن قروناً متطاولة قد أهلكها الرب، حتى دون أن يسأل عن  
ذنوبهم بعد تحقق إجرامهم.



## فخرج على قومه في زينته

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
يَلْبَسْتَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ ﴿٧٨﴾

\*\*\*

## تفصيل القول

١ - ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ ﴾

رغم أن القرآن الكريم يحدّد لنا حدود الشريعة بوضوح،  
ويأمرنا بمزيد الاهتمام بها، إلا أن الوجهة العامة للآيات القرآنية  
تذكّرنا أبداً بحكمة الأحكام وأهدافها السامية والقيم المثلى فيها،  
بحيث يعجز الإنسان عن الفصل بين تلك الحدود التي ترسمها  
الأحكام وبين تلك الحكمة التي بيّنها القرآن.

فالمال نعمة، ولكن ما هي حكمة المال؟ وما الهدف منه؟ وماذا  
نعمل لكي لا يصبح المال نقمة؟

إنّ المال هو فتنة للإنسان، وعلى الإنسان تسخيرها لسعادة الدنيا والآخرة والإحسان الى الآخرين. أما من يتخذ منه وسيلة لتضليل الناس وصرّفهم عن القيادة الرسالية المتمثلة بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ومن ثم تضليل المجتمع عن الخط الإيماني وعن قيم الرسالة الحقّة، فهو في خط معارض للحق، وثروته تصبح عليه وبالاً.

وهكذا فللمال حكمته، وعلى صاحبه وعيها وتنظيم تصرفاته وفقها. فهذا قارون الذي كان من قوم موسى عليه السلام فبغى عليهم، اتخذ من المال وسيلة لتضليل الناس وإبعادهم عن الحق.

وها هو الآن يخرج على قومه بزيتته، المتمثلة بما ملك من ملابس مذهبة والخيل المسومة، وكان هدفه إغواء الناس واحتواء المجتمع وابعاده عن النبي موسى عليه السلام، وبالتالي لإضلالهم عن هدى الله سبحانه وتعالى.

إن من شأن الزينة أن تثير هواجس الكثير من الناس وتسيل لعبهم، لاسيما وأن أكثر الناس لا يعرفون قيمة الهداية، ولا يعلمون أنّها من فضل الله، ولا يشكرون الله والنبي عليه السلام عليها، ولا يعرفون قيمة المعارج الكمالية الروحية وما بها زينة الروح؛ فإذا رأوا زينة الحياة الدنيا، إنبهروا بها، وفقدوا توازنهم وصابهم.

لقد أراد قارون بخروجه بزيتته التامة أن يفتن الناس، لا أن يعين الضعفاء والفقراء منهم، وكأنه كان يريد القول لهم بأنه مع تمرده على الحق إنهالت عليه الدنيا بما يتمتع من ذكاء وتخطيط، وأن ما يدعوهم إليه موسى عليه السلام لا يعود عليهم بغير الفقر والذلة والمسكنة. فهو إذن قد استهدف مشاعرهم، خصوصاً وأنه قد رُين للناس حب الذهب والفضة والدنانير وجمال الطلعة وهيبة مسار

الأثرياء وإغراء الاستعراض.. فراح يتكبر بما لديه من نعمة، ومن هنا نرى كيف فُتِنَ الناس.

## ٢- ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾

كان من جملة قوم موسى وأصحابه ولعلمهم الغالبية من يعيش مع النبي طمعاً في حطام الدنيا، ولم يظهر منهم ذلك إلا بالاختبار. وفي هذا تأكيد على أن مجرد الصحبة لنبي من الأنبياء غير كافٍ في تزكية الفرد، إذ نجد في أصحاب الأنبياء عليهم السلام من هو منافق أو جاهل أو غافل عن تعاليم الدين، وغير مهتم بجهود النبي المضنية الشاقة في سبيل هداية الناس.

وهكذا فإن للصحابي فضله الكبير إذا ما تجرد عن طلب الدنيا وأقبل بكل وجوده على تلقي ما يصدر عن النبي، ثم أحبه وأحب مواليه، والتزم بتعاليمه حقاً. أما مثل قارون ومثل من انخدع به وتمنى لو أوتي مثل زينته، فلا تنفعهم مصاحبتهم أو معاصرتهم لعهد الرسالة.

## ٣- ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾

راحوا بجهلهم وبتعلقهم بزينة الدنيا يتمنون ما كان لدى قارون؛ أي أنهم تنازلوا عن يقينهم بتعاليم موسى عليه السلام وعمارفهم إلى المنزلة السامية؛ تنازلوا الصالح الأمانى، فتكشفت سرائرهم بعد أن نجح قارون في استمالتهم، وجذب مشاعرهم الباطلة إلى زينته.

## ٤- ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

لقد التبست عليهم مقاييس الكمال، وهذا ما كان يطلبه قارون؛

إذ جعلوا الدنيا وتوافه الأمور وظواهر الحياة المخادعة أكبر همّهم، وذلك بعد أن غفلوا عن حكمة الله سبحانه وتعالى في إيتائه الثراء لهذا أو ذلك دون غيرهما.. في حين كان الأحرى بهم أن ينظروا إلى مشهد قارون الخارج بزينته عليهم بعين البصيرة النافذة، لئلا يسقطوا بجهلهم بحقيقة الفتنة، وأن الله كما امتحن قارون بالمال، كذلك هو يمتحنهم بقارون.

## بصائر وأحكام

١ - رغم أن القرآن الكريم يحدد لنا حدود الشريعة، ويأمرنا بالمزيد من الاهتمام بها، إلا أن الآيات القرآنية تذكرنا في الأغلب بحكمة الأحكام وأهدافها السامية، بحيث يعجز الإنسان عن الفصل بين تلك الحدود التي ترسمها الأحكام وبين حكمها.

٢ - إن المصاحب للنبي يبقى فرداً له فضله الكبير إذا ما تجرد عن طلب الدنيا وأقبل بكل وجوده على تلقي ما يصدر عن النبي والالتزام بتعاليمه حقاً. ولكنه إذا تجرد عن ذلك، فلعل إثمه أكبر من غيره، لأنه ضال مضل.

٣ - لقد امتحن الرب قارون بالثروة، وامتحن أهل الدنيا من معاصريه بزينة قارون.



## ثواب الله خير

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ ﴿٨٠﴾

\*\*\*

### من الحديث

روي عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ في حديث، قال: «قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ الصَّابِرُونَ؟ قَالَ ﷺ: الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَاجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ، الَّذِينَ كَسَبُوا طَيِّبًا، وَأَنْفَقُوا قَصْدًا، وَقَدَّمُوا فَضْلًا، فَأَفْلَحُوا وَأَصْلَحُوا»<sup>(١)</sup>.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «عِنْدَ نَزْوِلِ الْمَصَائِبِ، وَتَعَاقِبِ النَّوَائِبِ، تَظْهَرُ فَضِيلَةُ الصَّبْرِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) مكارم الأخلاق، الطبرسي، ص ٤٤٦.

(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة رقم: ١٧١١.

## تفصيل القول

كما الماء جوهر حياة البدن، فإن العلم حقيقة حياة الروح. وعندما يستوعب البشر نور العلم، يرتفع مستوى نظراته من الحياة، فلا تغرّه مظاهرها، بل يذهب عميقاً لمعرفة حقائقها.

ونتساءل: إذا ما هي حقيقة الحياة؟ هل الحياة حقاً هي ما تراه العين من زينة ويلتذ به الإحساس من شهوة، أم هي أعمق من ذلك مدى؟.

الحياة هي راحة القلب، ورضا النفس، والثقة بالمستقبل الأمثل في الدنيا والآخرة.

بلى؛ ما عند الله من ثواب عظيم، هو لمن اتبع رضوانه في الدنيا والآخرة.

١- ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾

فما يؤتيه الرب خير، لأنه حينما يؤتي شيئاً للإنسان يوفّر فيه شروط الإنتفاع به والرضا، وبالتالي السعادة من خلاله.

ثم إنه نعمة لا تعقبه نقمة، وعطاء ليس بعده عناء يعكس ما لدى أصحاب الدنيا. فالدنيا ظاهر لا واقع له؛ كفضة تُطلى بها المقبرة، ظاهرها بريق، وباطنها رميم. وشرط هذا الثواب الإيمان الذي يعالج كل نواقص القلب وأمراضه، والعمل الصالح الذي يعالج ما في الواقع من سلبيات.

٢- ﴿وَلَا يُقَفِّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾

فهم الذين لا يريدون ظاهر الحاضر دون ما بعده من عواقب،

فَرُبَّ فَعَلٍ أَعْقَبَ نَدْمًا، وَرُبَّ لَقْمَةٍ حَرَمْتَكَ الْحَيَاةَ.

الصابر يتجاوز بعلمه الظاهر إلى الباطن، والقريب إلى البعيد.  
إنه حقاً جدير بتلقي هذه الموعدة الرشيدة.

## بصائر وأحكام

إذا كان الماء حياة البدن، فإن العلم حياة الروح. وبالعلم  
يتجاوز المؤمن ظاهر الحياة الدنيا إلى واقعها، وظاهر القريب إلى  
حقائق المستقبل.



## ما كان من المنتصرين

﴿فَسَفَّنَا بِهِ، وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ، مِنْ فِتْنَةٍ يَنْصُرُونَهُ،  
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١).

\*\*\*

## تفصيل القول

جهل البشر يغرّه بربه حين يزعم بأنه لن يأخذه بما ارتكبه من جرائم بعد أن أنعم عليه بكل تلك النعم الجسيمة، ويتساءل جهلاً: كيف ينتقم الرحمن من عبده، أو ليست نعمه عنده دليل رحمته الواسعة به وربما حبه الكبير له؟.

وهكذا جهله يغرّبه بربه عندما يغفل عن مواطن ضعفه، وعن تقديرات الرب، ويزعم أن ما يملكه من وسائل القوة تكفيه حافظاً أمام كل ألوان الخطر ومخاوف الزوال.

وهكذا عندما خسف بقارون ربّه، كان صدمة كبيرة له ولمن اغتر به.

١- ﴿حَسَفْنَا بِهِ، وَبِدَارِهِ الْأَرْضُ﴾

الأرض مهد راحتته، ومستقر ثروته، حُسِفَتْ به وبما يملك من ثروات أحاطت بها داره التي زعم أنها آمنة وأنها له حافظة.

وكان حول قارون فئة من المغرورين به والمنتفعين منه، فهل انتصروا له؟.

كلا؛ لم يفعلوا، لأنهم أرادوه عوناً لهم، وليس العكس. ولو فعلوا، لم يكونوا ينفعونه شيئاً.

٢- ﴿فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

الله خالقهم وخالق السماوات والأرض، والمحيط بهم علماً وقدرة، كيف يواجهون قدره؟.

٣- ﴿وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾

بلى؛ قد تكون هناك فائدة من الفئة في مواجهات البشر لبعضهم، وليس مع الله تعالى.

بصائر وأحكام

جهل البشر بربه يغريه ويزعم أنه لن يأخذه، أو إن ما يملكه من عناصر القوة تكفيه، وعند الإنتقام يتبين أنه حتى فئته لن تنتصر له، ولو فعلت لما نفعته.



## ويكأنه لا يفلح الكافرون

﴿ وَأَصْحَابُ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانُ  
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ  
عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ .

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له تُعرف بالأشباح: «وَقَدَّرَ الْأَرْزَاقَ؛ فَكَثَّرَهَا وَقَلَّلَهَا، وَقَسَّمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَالسَّعَةِ، فَعَدَلَ فِيهَا لِيَتَّبِعِي مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَمَعْسُورِهَا، وَلِيُخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَالصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَفَقِيرِهَا»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم: ٩١.

## تفصيل القول

عندما انكشف وجه الحقيقة وتبين أن الزينة الظاهرة للثروة التي جمعها قارون تبددت في لحظات، عرف المغترون به أن تقدير الرزق بيد واهبه سبحانه، وأنه حين يبسط أو يقبض منه شيئاً فبحكمة بالغة.

١- ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ﴾

فقط بين عشية وضحاها تبين ضلال أمنياتهم، فقالوا:

٢- ﴿وَيَكُنْ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾

كل ذلك وفق سننه المهيمنة على كل شيء. صحيح أنه سبحانه أعطى للإنسان مساحة من الاختيار ليمتحنه، وهذه المسألة المحدودة والمنضبطة في علم الغيب بسنن الله سبحانه وتقديراته هي التي تخدع البعض بأن ما أصابوه من حطام الدنيا إنما هو بعلم كان عندهم، ولكنهم وبعد انتهاء فترة الاختبار يعيدهم ربهم إلى قضائه الحاكم.

ولكن الله سبحانه رحيم بعباده، فلا يمتحن الكل بالثروة الطائلة أو الفقر المدقع، إنما يمن على الكثيرين باعطائهم قدراً من الثروة المحدودة لكي لا يطغوا، وبقدر من الفقر لكي لا يكفروا.

٣- ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾

أي: أصبحنا مع قارون في عذابه الماحق، كما قوم هود، حينما رضوا بفعل عاقر الناقة، عمهم ربهم بعذاب بئيس.

٤ - ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكٰفِرُونَ﴾

وهم الذين كفروا بالله سبحانه، فلم يتبعوا الرسل، وكفروا  
بالنعم فلم يشكروها، وإنما طغوا بها. أعادنا الله من كل ذلك بفضلِهِ.

### بصائر وأحكام

عند إنتهاء فترة الإمتحان تتكشف الحقيقة وتصبح الزينة  
وبالاً، ويومئذ يعلم المغترون بها أن حرمانهم منها نعمة لا بد أن  
يشكروا الله عليها.



## والعاقبة للمتقين

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ  
وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٨٣)

\*\*\*

### من الحديث

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبة له  
معروفة بالشقشقية: «فَمَا رَاعِنِي إِلَّا وَالنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إِلَيَّ،  
يَتَأَلَوْنَ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، حَتَّى لَقَدْ وُطِئَ الْحَسَنَانِ، وَشُقَّ عِطْفَايَ،  
مُجْتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِضَةِ الْغَنَمِ. فَلَمَّا نَهَضْتُ بِالْأَمْرِ نَكَثَتْ طَائِفَةٌ،  
وَمَرَقَتْ أُخْرَى وَقَسَطَ آخَرُونَ؛ كَانَهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ:  
﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴾، بَلَى؛ وَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعُوهَا وَوَعَوْهَا، وَلَكِنَّهُمْ حَلَيْتِ الدُّنْيَا  
فِي أَعْيُنِهِمْ وَرَاقَهُمْ زَبْرُجُهَا»<sup>(١)</sup>.

(١) نهج البلاغة، خطبة رقم ٣.

وروى زاذان عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّهُ كَانَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ وَحَدَّهُ، وَهُوَ ذَاكُ يُرْشِدُ الضَّالَّ، وَيُعِينُ الضَّعِيفَ، وَيَمُرُّ بِالْبَيْعِ وَالْبَقَالِ فَيَفْتَحُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُ: ﴿لَيْكَ الدَّارُ الْأُخْرَىٰ بُجَعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ قَالَ: «قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: يَا حَفْصُ؛ مَا مَنَزَلَةُ الدُّنْيَا مِنْ نَفْسِي إِلَّا بِمَنَزَلَةِ الْمَيْتَةِ إِذَا اضْطَرَّرْتُ إِلَيْهَا أَكَلْتُ مِنْهَا.

يَا حَفْصُ؛ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلِمَ مَا الْعِبَادُ عَامِلُونَ وَإِلَى مَا هُمْ صَائِرُونَ، فَحَلَمَ عَنْهُمْ عِنْدَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ لِعِلْمِهِ السَّابِقِ فِيهِمْ فَلَا يَغْرَنَّاكَ حُسْنُ الطَّلَبِ مِمَّنْ لَا يَخَافُ الْقَوْتَ. ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ: ﴿لَيْكَ الدَّارُ الْأُخْرَىٰ﴾ الْآيَةَ. وَجَعَلَ بَيْنِي وَيَقُولُ: ذَهَبَ وَاللَّهِ الْأَمَانِيُّ عِنْدَ هَذِهِ الْآيَةِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: فَارْزُوا وَاللَّهِ الْأَبْرَارُ. أَتَدْرِي مَنْ هُمْ؟ هُمُ الَّذِينَ لَا يُؤْذُونَ الدَّرَّ، كَفَىٰ بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وَكَفَىٰ بِالِاغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا...»<sup>(٢)</sup>.

## تفصيل القول

لعل هذه الآية الكريمة هي محور كل سورة القصص وسياقها وزبدتها؛ فهي قد تحدثت عن الحركة الرسالية حين انطلاقها ونصر الله تعالى لها، إلى حين أصبحت ظاهرة في الأرض وتمكنت في البلاد بإذن الله تعالى. وهنا وبعد الانتصار تضاعفت مسؤولية التجمع الإيماني.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي، ج ٧، ص ٤٦٤.

(٢) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٤٦.

وبما أنهم اليوم يملكون من صلاحيات السلطة وأدوات القوة والهيبة ما يملكون، فهم مطالبون بتقديم الشكر على ما أنعم الله عليهم؛ ليس شكراً باللسان فحسب، وإنما شكراً بالوفاء لمقتضيات النعمة والشعارات المطروحة والأهداف المرجوة.. والشكر بدوره ليس أمراً بسيطاً ولا سهلاً، خصوصاً وأن المسؤولية تتضاعف كلما توالى النعم.

من هنا كان واجب الحركة الرسالية في تلك الفترة إقامة (تطبيق) الصلاة وإحياء أمرها، وبالتالي صبغ المجتمع بصبغة العبادة لله، وإيتاء الزكاة وإيلاء الطبقات المحرومة والشؤون العامة إهتماماً بالغاً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لشدة أواصر المجتمع على أساس من القيم المثلى.. لكي لا يغتر المجتمع بوسائل القوة وبمظاهر العزة المتوفرين لديهم، ولكي يعلموا أن الحاكم الأقوى الذي تعود إليه عاقبة الأمور هو الله تعالى، وييده مقاليد كل شيء. فتعتبر الحكومة على الناس توفيقاً ربانياً واصطفاءً حكيماً من قبل الباري سبحانه وتعالى، لأن يكونوا خدماً للناس ولإدارة شؤونهم، وأن يقودوهم بما يرضيه منهم ربهم سبحانه.

وبالتالي لكي لا يمسي المؤمنون الذين مكنتهم الله تعالى في الأرض وهياً لهم مقاليدها بعد عناء طويل وتضحيات جسام، لا يمسوا كقارون الذي ما أن رأى الأموال تسيل بين أصابعه، حتى نسي المنعم عليه، فبغى وفرح وفسد وأفسد.

إن الله تعالى يبين الأمر بوضوح، ويؤكد أن الدنيا والآخرة عبارة عن كفتي ميزان، فإذا رجحت كفة الآخرة فإنك سوف تجمع بين نعيم الدنيا والآخرة. أما إذا رجحت كفة الدنيا فانك لن تحصل

على شيء، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ونستفيد من الآية الكريمة ضرورة أن يضع التجمع المؤمن مقياساً سليماً للكمال يتمثل في اختيار الآخرة على الدنيا عند التعارض، وفقاً للدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ: «وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا...»<sup>(١)</sup>.

حيث تكون التعاليم الإلهية ماثلة في وجدان المؤمن أبداً، ويكون ما عند الله سبحانه خيراً عنده، فإن عليه أن يخضع حياته كلها لهذا المقياس.

وقبان الميزان في هذا المقياس رفض الاستعلاء، فإن من لا يريد العلو في الأرض في حال تمكنه منها، يُعتبر قد نجح في الاختبار الأول، وتبقى أمامه الاستقامة على الطريق، ذلك أنه بهذه الصفة المائزة قد أبعاد نفسه ومواقفه عن الدائرة الفرعونية المغرورة بالسلطة والتمكبرية في الأرض، وهكذا عن الدائرة القارونية الباغية على الناس، والمفسدة للناس بالثروة.

وحتى على مستوى الجماعة المؤمنة، عليها ألا تريد علواً في الأرض بسلطتها ولا فساداً بمالها؛ أي بما تهيأ لها من قوة وثروة. فهذا ينفع استقامتها على هدفها في إكمال تطبيق المشروع الإلهي الذي أراده الرب المتعال للأرض وأهلها.

وإن خير مصداق، وأيضاً خير قدوة للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً مع ما كان لديهم من القدرة، هم الأنبياء وسيدهم الحبيب المصطفى ﷺ، وكذلك الأئمة المعصومون عليهم السلام.

---

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج٦، ص ٢٨٥.

وهم الذين كانوا يتمتعون بالولاية التشريعية والتكوينية، ولكنهم جسدوا وجودهم المقدس رحمة للناس ونفعاً، ودعوة لهم إلى تعاليم الرسالة. ولا ريب أن هذه الحقيقة ستتجلى بأروع صورها في حكومة مولانا صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، حيث العبودية المطلقة لله سبحانه الواحد الأحد، يومئذ تتجلى هذه الدولة القدوة كما لم تتجلى من قبل، ويتحقق معنى الإنسانية كما أراد الرب المتعال للإنسان أن يكون، دون بغي ولا تجبر، ودون فرح ولا غرور ولا فساد.

## المعيار الدار الآخرة

يبين ربنا المتعال في هذه الآية الشريفة التي هي من المحاور الأساسية في هذه السورة، كما أشرنا أن المعيار هو الحق الذي يستطيع كل إنسان أن يفهمه شخصياً وأن يعرف ما إذا كان هو من أهله ليكون من أصحاب الجنة، أم لا ليكون والعياذ بالله من أهل النار.

إذاً يرجع كلٌّ إلى نفسه، ليرى ما إذا كان يفضل الآخرة على الدنيا أم العكس. فإذا كان بالفعل يفضل الآخرة على الدنيا، فمن علامته أنه لا يريد علواً في الأرض ولا فساداً، وبالتالي فهو يتجاوز هواه ولا يبحث عن الجاه، وإنما يعمل بكل ما يملك في سبيل الله، فهو من أهل الجنة بإذن الله.

وأما إذا كان واقعه يشير إلى العكس، فعليه أن يشك في كونه من أهل الجنة.

وهذه القيمة المعيارية لا تعني حذف سائر القيم المرتبطة بالسلوك اليومي، ذلك أن درجات أهل الجنة متفاوتة، وأنهم لا

يحصلون عليها فقط لكونهم كانوا يحبونها، بل بعد العمل بما يؤهلهم لها.

كذلك أهل النار، ليس في درك واحد، هو الدرك الأسفل، بل لكل مقعده منها، كما وأنهم ليسوا جميعاً خالدين فيها.

وبكلمة؛ إن المقاييس دقيقة للغاية، وأن كل فرد سيحاسب حساباً تفصيلاً على أقواله وأفعاله. ومن الجدير بابن آدم الذي يعي هذه الحقيقة أن يندفع إلى عمل الخير باستمرار مع الاحتفاظ بخلوص النية، وأن يعزم دوماً على الكف عن ممارسة فعل الشر.

### بصائر وأحكام

على الحركة الرسالية أن لا تغتر بما تملك عند المكنة في الأرض من أسباب القوة والعزة.. فتعلم أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله تعالى، وأن بيده مقاليد كل شيء. وهكذا يجب عليها أن تعتبر السلطة التي حصلت عليها توفيقاً ربانياً، لأن يكونوا خدمة للدين وللناس، وقيادتهم باتجاه مرضاة الرب سبحانه.



## من جاء بالحسنة فله خير منها

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾

\*\*\*

## تفصيل القول

بعد أن علم الله الرحمن الإنسان وبإجمال المعيار العام لحياته، وأن الدار الآخرة إنما يجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، جاء يذكرنا بالتفصيل.

على الإنسان أن يعمل للأجر. وهذه النية، بدءاً ودواماً تمنح الفرد حيوية بالغة، وحاجزاً قوياً للإبتعاد عن الشر، لعلمه بأن كل ذرة خير ستنتفعه.

فمن جاء بالحسنة؛ صغيرتها وكبيرتها، وحتى تلك التي قد يستهين بها، إنما يدخرها له رب العالمين لوقت يكون فيه أحوج شيء

إلى مثقال الذرة من الخير. بلى؛ وهو يضاعفها له أضعافاً مضاعفة.  
أما السيئات، فإن رحمة البارئ سبحانه تأبى أن يضاعفها على  
صاحبها، إنما يجزي بها ويعفو عن كثير.

ويبقى القول بأن من الحياة ما هو غيب علينا، وهو ما أراده الله  
تعالى أن يبقى غيباً لكي تكتمل حقيقة الإبتلاء. وهكذا ترى الخير  
والشر مزيجاً ببعضهما، ومتشابهاً في بعض الأحيان، ليؤدي ابن آدم  
دوره في التمييز والتحديد، فإذا فعل ذلك، كان جديراً بالفوز بجنة  
الرب تعالى.

إن الله تعالى يريد لمخلوقه الإنسان أن يعقل الحقائق ببصيرة  
نافذة خيرها وشرها، فلا يبقى سادراً في جهله فتختلط عليه الأمور.  
ولعل التمايز بينهما يتم عبر تذكرة الجنة والنار وجعلهما نصب عينه  
أبداً، وتصور نفسه صائراً إلى أحد المصيرين، لكي يعمل دوماً  
للمستقبل المشرق الذي أعده الرب المتعال له، فإذا كان كذلك فاز  
في الدنيا وفي الآخرة بعد أن يكون قد نجح في الإمتحان.  
أما من يتخلف عن هذه الحقيقة، فسوف لن يجد أمامه غير  
الخيبة مصيراً، ناهيك عن الضنك الذي يحيط به في دار الدنيا.

## بصائر وأحكام

على الإنسان أن يعمل للأجر. واستمرار هذه النية الطيبة تمنح  
الفرد حيوية بالغة، ويكون حاجزاً بينه وبين الشر.



## ربي أعلم من جاء بالهدى

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي  
أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٨٥)

\*\*\*

### من الحديث

روي عن الحسن بن علي عليه السلام في حديث أن النبي ﷺ لما أُلجئ إلى الخروج من مكة، التفت إليها وقال: «اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّكَ، وَلَوْ لَا أَنَّ أَهْلَكَ أَخْرَجُونِي عَنْكَ لَمَا أَثَرْتُ عَلَيْكَ بَلَدًا، وَلَا ابْتَغَيْتُ عَلَيْكَ بَدَلًا، وَإِنِّي لَمُعْتَمِدٌ عَلَىٰ مُفَارَقَتِكَ. فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا مُحَمَّدُ؛ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ يُقَرِّتُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: سَرَدُّكَ إِلَىٰ هَذَا الْبَلَدِ ظَافِرًا، غَانِمًا، سَالِمًا، قَادِرًا، قَاهِرًا. وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يَعْنِي إِلَىٰ مَكَّةَ»<sup>(١)</sup>.

(١) مستدرک الوسائل، الميرزا النوري، ج ٩، ص ٣٤٥.

## تفصيل القول

١ - ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾

لقد لاحق الطغاة النبي موسى عليه السلام، كما قرأنا في فاتحة هذه السورة المباركة، فخرج من مدينة سكناه، ثم أعاده الله إليها منتصراً. فهل هذه قصة عابرة في التاريخ، أم هي سنة إلهية تتكرر؟.

ربنا تعالى هنا يجيب بأنها سنة ثابتة، وإن من يخرج من بلده بغير حق، ثم يجاهد متوكلاً على الله، فإن الله سبحانه ينصره.

وها هو القرآن الكريم يشير إلى هذه السنة، ولكن ليس بصورة مجردة، وإنما مع إيضاح ما يتصل بها من آيات.

وهنا يخاطب ربنا سبحانه الرسول ﷺ إلى أن القرآن كتاب مفروض عليه، فلا يستطيع الإنسان أن يتحداه، لحاجته إليه أولاً، ولأن الله أمر باتباعه ثانياً، وللعاقبة المخيبة التي تنتظر من ترك العمل به ثالثاً.

وإنما فرض الله القرآن على الناس لمصلحتهم ونفعهم، إذ لن ينسى الله عباده ما داموا اتبعوا القرآن، وهو سيبقى وليهم في الدنيا والآخرة.

فهو سبحانه الذي نزل الكتاب وفرض القرآن، ولا يترك أو يهمل من أتبعه. ولعل هذا من معاني قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة الحجر، آية: ٩.

فهو يحفظ كتابه بحفظه لمن دعا إليه واتبع الداعية، بل إن القرآن ليشفع لمن لا يهجره، ذلك لأن القرآن كتاب حي وكتاب حياة. وليس خافياً أن الكوارث التي حلت ولا تزال تحل بالمسلمين عموماً مردّها إلى هجرة القرآن بشكليه الصامت والناطق، فتراهم تتداعى عليهم الأكلة.

وكان فيما فرض الله من كتابه، الجهر بتوحيده، وإعلان التبري من الأصنام وما يعبد من دونه سبحانه، مما جعل الصراع يحدث بين الرسول والمشركين، وبالتالي دعا ذلك النبي ﷺ إلى الهجرة من مكة، البلد الأمين، ليديم الدعوة.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، إنه لن يترك أبداً، تحنناً منه سبحانه ورحمة وحكمة.. فمن أمرك بالهجرة سيعيدك إلى موطنك متصراً.

وقد جاء في الأثر، قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ: «إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلَمَّا نَزَلَ الْجُحْفَةَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَعَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى مَكَّةَ، فَاسْتَأْذَنَ إِلَى مَكَّةَ وَذَكَرَ مَوْلِدَهُ وَمَوْلِدَ آبَائِهِ. فَاتَاهُ جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: أَتَسْتَأْذِنُ إِلَى بَلَدِكَ وَمَوْلِدِكَ؟ فَقَالَ ﷺ: نَعَمْ. فَقَالَ جَبْرَيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ يَعْنِي لَرَادُّكَ إِلَى مَكَّةَ ظَاهِراً عَلَيْهَا»<sup>(١)</sup>.

والمعاد هو الوطن الذي يرجع إليه بعد الخروج منه.

لم يقل الله: معادك، بل قال: ﴿مَعَادٍ﴾ مع أن مكة المكرمة هي موطن رسول الله ﷺ، لعله يشير إلى أن هذه سنة إلهية لا تخص

(١) روضة الواعظين، ج ٢، ص ٤٠٦.

النبي ﷺ، بل تجري في كل من سار على دربه وجاهد من أجل إعلاء كلمة الحق، فإنه سيعود بإذن الله إلى معاده منتصراً.

٢- ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

ليس كل من يهاجر بلاده يفعل ذلك لوجه الله تعالى ونصرة دينه، فمن يفعل ذلك من أجل الله تشمله سنته. فالله أعلم بما في نيات المهاجرين الذين قد يغادرون بلدانهم طلباً للرزق أو هرباً من بطش عدو، أو نشر للرسالة.

وأمر ربنا سبحانه بالنسبة إلى من جاء بالهدى ومن هو في ضلال ليس سواء؛ إنه ينصر من جاء بالهدى، ويمحق الكافرين.

## بصائر وأحكام

ربنا الجبار فرض القرآن على الرسول ومن اتبعه، وفيه كل خير للبشرية، وقد حملة الرسول، وتحدى به المشركين، واحتدم الصراع، وهاجر الرسول.. والدعوة استمرت. وهذه سنة الله في عباده، وأمره فيهم ليس سواء؛ فمن اتبع الهدى، ليس كمن هو في ضلال مبين. وهكذا فقد فرض نصره الرسول، ورده إلى معاد بفضله. وهذه السنة تجري فيمن اتبع هداه بفضله.



## فلا تكونن ظهيراً للكافرين

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٦﴾

\*\*\*

### تفصيل القول

لم يكن القرآن الكريم حقاً مفروضاً للناس، وإنما كان رحمة مهداة، بل وكان نعمة جديدة فوق سياقات النعم الدائمة. وهكذا قال ربنا:

١- ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾

لما كانت الرسالة الإلهية قد أُلقيت إلى نبينا الأكرم ﷺ، وجاءت من عل وليس ضمن سائر النعم التي تأتي من خلال السنن الجارية؛ كل ذلك لنسف كل الذي بناه الشيطان في عقول الناس من ثقافات باطلة، وفي علاقاتهم وأنظمتهم من العصبية والأحكام الجائرة، ليكون الكتاب بديلاً عن الشرك وما فيه من فسق وضعف

وانحراف. وبتعبير آخر؛ كان صياغة جديدة للعالم، وهداً فاصلاً بين عصر مضى وآخر آت. ومن هنا فإن ربنا المتعال طالما أوجب على أنبيائه ﷺ أن لا يعتمدوا دين الكافرين ولا يداهنوهم ولا يأخذوا من تقاليدهم البالية شيئاً، ذلك لأن الله تعالى أراد للبشر أن يبنوا بنياناً جديداً قائماً على الحق والصدق وأفضل الأخلاق.

٢- ﴿إِلَّا الرَّحْمَةَ مِنْ رَبِّكَ﴾

فالكتاب ما نبت من الأرض وعصبياتها وجاهليتها وضعفها، بل هو مصداق الرحمة الإلهية المهداة من السماء.

٣- ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾

أي: لا تسرم مع الكافرين بالله تعالى ضمن مسار واحد، ولا تحالف معهم، لأنهم لا ينتهون إلا إلى ضياع. وعدم الاستظهار بالكافرين عامل من عوامل حفظ الرسالة والحركة الرسالية، لأنه يحصن الدين من الانحراف والتشويه، وأيضاً من الإنهيار لأن الكيان الكافر صائر إلى الانهيار بما فيه من عوامل الضعف. فيما الدين القيم سائر باتجاه الغلبة بفضل الله تعالى، وبما فيه من عوامل القوة وأسباب النصر.

## بصائر وأحكام

إنَّ الرسالة المحمدية ليست نبات الأرض، وإنما هي قد نزلت من السماء صافية نقية، فلا بد من حمايتها من أسباب الضعف المتوفرة في الكفار، من العصبية الظالمة والأنظمة الفاسدة.



## أدع إلى ربك

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٨٧)

\*\*\*

## تفصيل القول

١ - ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ﴾

إذا كانت سورة القصص المباركة قد نزلت من أجل بيان معالم الحركة الرسالية والتي تستلهم أصولها من حركة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وما لديهم من مصابيح الهدى ومعالم الصراط المستقيم، فإن ختام هذه السورة تتصل بفتحها في هذا السياق، حيث يحذرنا الرب من التراجع أمام ضغوط الطغاة. ألم نقرأ في مطلع هذه السورة، إن الله تعالى قد نصر النبي موسى عليه السلام حينما قام بوجه فرعون، ولم يصدّه عن الرسالة طغيان فرعون.

وهنا سؤال يطرح نفسه، وهو: ألم يكن من الأحرى أن يطرح النهي على الطرف الآخر؟. فيقال: يا أيها الكفار لا تصدّوا النبي، لاسيما وأنهم قد بنوا بناءهم على مواجهة الوحي ومن اتبعه، حيث كرّس المشركون جهودهم لتفنيد الرسالة، ولكن بما أن سياق القرآن هنا الحديث عن الرسول وأتباعه المؤمنين، جاء هنا الأمر بحرمة التنازل لهؤلاء الذي بايعوا الشيطان، وأن لا يفسحوا لهم المجال كي يعيدوا الناس إلى ملتهم الكافرة.

وهذا الأمر الإلهي الوارد يستبطن عدة أوامر أخرى، منها:

**ألف:** أن يعدّ المؤمنون أنفسهم خيراً إعداداً وعلى كافة المستويات.

**باء:** أن يعي المؤمنون مكيدة الكافرين في أنهم لم يطالبوا المؤمنين في مواقع عدة بترك الآيات كلها، وإنما هم قد استهدفوا مضامين آياتٍ كانت تهددهم في أصل كفرهم ووجودهم، وذلك تمهيداً لطلبهم بترك القرآن كله. فيتوجب عليهم إذ ذلك أن يعوا حجم المؤامرة ويسلحوا أنفسهم بالصلابة والاستقامة، ولذلك ابتدأ الله تعالى سورة القصص بقوله العزيز الحكيم: ﴿طَسَّرَ ۝١ تَلَاكَ ۝٢ أَلَكِنِّبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهو وحدة واحدة ولا يمكن تقسيمه ولا الإيمان ببعضه والكفر ببعض آخر.

**جيم:** إن هذه الآيات قد أنزلت من قبل الله وصارت واقع قوانين وأحكام فعلية، ولا يمكن التهرب منها بداعي صدّ الكافرين.

٢- ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾

هناك دعوات كثيرة في شرق الأرض وغربها، ولكنها مشوبة

بالبدع والأباطيل والمصلحيات والحزبيات، غير أن الدعوة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى واعية لتعاليمه الحقّة.

٣- ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

أي: من الذين يخلطون الدعوة إلى الله بدعوات عصبية أو حزبية.

### بصائر وأحكام

١- بالرغم من محاولة صد الدعوة من قبل الطغاة أو المجتمع الفاسد، لا بد للداعية أن يتجاوز كل محاولات الصد بالتوكل على الله والإعداد الدائم.

٢- هناك دعوات كثيرة في شرق الأرض وغربها، ولكنها مشوبة بالبدع والأباطيل والمصلحيات والحزبيات، غير أن الدعوة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى واعية لتعاليمه الحقّة.



## له الحكم وإليه ترجعون

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨)

\*\*\*

### من الحديث

عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ «فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، قَالَ: فَيُنْفَى كُلُّ شَيْءٍ وَيَبْقَى الْوَجْهُ، اللَّهُ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُوصَفَ. لَا؛ وَلَكِنَّ مَعْنَاهُ: كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا دِينَهُ. وَنَحْنُ الْوَجْهُ الَّذِي يُؤْتِي اللَّهُ مِنْهُ؛ لَمْ نَزَلْ فِي عِبَادِهِ مَا دَامَ اللَّهُ لَهُ فِيهِمْ رَوِيَّةٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ رَوِيَّةٌ رَفَعْنَا إِلَيْهِ، فَفَعَلْنَا بِمَا أَحَبَّ. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، وَمَا الرُّوِيَّةُ؟ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الْحَاجَّةُ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ الْحَارِثِ بْنِ الْمُغِيرَةِ النَّضْرِيِّ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ

(١) تفسير القمي، الشيخ علي بن إبراهيم القمي، ج ٢، ص ١٤٧.

عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا مَنْ أَخَذَ طَرِيقَ الْحَقِّ»<sup>(١)</sup>.

وَعَنْ صَفْوَانَ الْجَمَّالِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: مَنْ أَتَى اللَّهَ بِمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَهُوَ الْوَجْهَ الَّذِي لَا يَهْلِكُ، وَكَذَلِكَ قَالَ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٢)</sup>»<sup>(٣)</sup>.

## تفصيل القول

كما أن أصل الخلق من الله سبحانه وتعالى، وكما أنه هو الخالق والمصور والرزاق والهادي والحافظ.. فإن كل خير يرجع إليه تبارك اسمه. فيما الشر كله يصدر عما يخالف الحقيقة التوحيدية له؛ أعنى الشرك به عز وجل، وما الفواحش الظاهرة والباطنة إلا وجذرها الشرك بالله. فكان لا بد إذا أريد اقتلاع جذر الفواحش، لزم اقتلاع الشرك، وإذا أريد إقامة بنیان الحق والعدل والصلاح وجب العود إلى معرفة الله تبارك اسمه.

١ - ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾

لعل الدعوة المنهي عنها هنا، هي الدعاء والإستغاثة، والله سبحانه هو الذي يلجأ إليه كل مضطر ويدعوه فيستجيب دعاءه؛ فلا يسمح لأحد هنا أن يطلب غير الله ويعبد غير الله إلهاً آخر على وجه

(١) المحاسن، الشيخ البرقي، ج ١، ص ٢١٨.

(٢) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٣) التوحيد، الشيخ الصدوق، ص ١٤٩.

الإطلاق دون تقييد أو تخصيص، وقد قال ربنا تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُمَّلَةً مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وكل ضمير قد استنار بهذه الدعوة قدر الإضطرار، إلا أن البعض يتخذون أنداداً من دون الله، ويزعمون أنهم شفعاء إلى ذي العرش سبحانه.

بلى؛ إذا أمر الله سبحانه بأن ندعوه بأسمائه الحسنی، ونتخذ إليه وسيلة من نبي أو وصي نبي، فإن دعاءنا إليه بالوسيلة هو محض التوحيد. وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإن من أبرز المعاني التي نستفيدها من هذه الآية الشريفة، هي الولاية، لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إذ ليس الحكم لأحد غيره، فالولاية خاصة به.

ومعنى التسليم لولاية الله تعالى رفض مدعي هذه الولاية من أرباب متعددة وقيادات زائفة، فكانت الأحرف الأولى لكلمة التوحيد، هي الرفض بكلمة ﴿لَا إِلَهَ﴾، أي: تجنب كل ألوان الشرك بالرب.

بلى؛ إنها الأصعب على البشر، لأنها تعني تحدي المسابقات الثقافية، والإنشداد العاطفي، والضغط الاجتماعي، ووساوس الشيطان. وقد قال ربنا سبحانه: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ

(١) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٢) سورة المائدة، آية: ٣٥.

فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴿١﴾

فإذا لم نقل لمصاديق الشرك: لا، فكيف سنقول كلمة نعم لمصاديق الخير والصلاح، ولا تتم هذه إلا بتلك؟ وهذه هي أزمة الإنسان الكبرى.

إن الولاية كانت محور كل ألوان الصراع صراع الفرد مع نفسه أو مع مجتمعه وهذا الصراع مصنع الإنسان، فلولا قدرته على تجاوز حواجز الصراع إلى الله من هوى داخلي أو ضغط خارجي، لا تصاغ شخصيته الإيمانية، تلك التي تتحرر من كل غل أو إصر وتنتقل في رحاب التوحيد الحنيف.

والولاية شجرة متكاملة لا يتخللها العيب والعطب، وجذرها ضارب في القلب الذي يحب أولي الولاية الحقّة ويبغض ولاية الباطل وأدعياءها، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَىٰ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ \* تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

وهكذا التسليم لولاية الرسول وأوصيائه، تجل واضح لولاية الله سبحانه، وإنه منزلة سامية من منازل الإيمان.

وشجرة الولاية لا بد أن تنمو في الإنسان وتتفرع أغصانها في كل اتجاه، وتتجلى في كل صفاته ومواقفه.

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

(٢) سورة إبراهيم، آية ٢٤-٢٥

٢- ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾

إن الله رب العالمين لا يزول ولا يزول من يمثله، وهم النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، أما غيرهم فهم زائلون لأنهم لا يمثلون وجه الله تعالى كما يريد.

وهذه الكلمة تؤدي بنا إلى معرفة نوع خفي من الولاية الإلهية، تتمثل في نبذ الرياء والسمعة، وتجنب الكبر والغرور والبطر، وإلى تحدي عبادة الآلهة المزيفة من طغاة السلطة، ومتجبري الثروة، وأركان العصبية، ومروجي العادات القبيحة.

٣- ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾

الحكم تشريعاً وتكويناً، إذ في النهاية يحكم على الحكم الباطل بالفناء، ولا يبقى غير وجه الله تعالى وحكمه.

٤- ﴿وَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فعملنا ونياتنا يبرزان أمام الله تعالى، إذ يعسر الحساب، وليس لأحد أن يدعي البقاء، أو بأنه لن يرجع إلى الله العلي الكبير. ذلك لأنه لا يملك حياته بدءاً، فكيف له القول بأنه يملكها إستمراراً، وأنه لن يموت ولن يبعث حياً؟!.

وكلمة خاتمة يجب أن تقال في نهاية هذه السورة المباركة:

إن هذه الآية والآيات المشابهة التي تذكّر بتوحيد الله، لو فهمناها ورعاها، وعملنا بها بصورة صادقة، كانت أفضل الوسائل في مقارعة الظلم والطغيان، وبالتالي في الانتصار بإذن الله تعالى. ذلك لأن كل فرد ينبغي أن ينسلخ بينه وبين ربه وفي أعماق وجدانه

من ولاية الشيطان التي تتمثل في حكم الطغاة، ويدخل حصن ولاية الرب العلي القدير. وهذه تؤدي به إلى إزاحة كابوس الطاغوت، والتحرر من إصر الجبت، والعروج في سماء التوحيد الخالص بإذن الله تعالى.

## بصائر وأحكام

- ١- بعد كل هذا الصخب، لا يبقى إلا وجه الله وكل مَنْ أو ما يتصل به سبحانه من الرسل والأولياء، ومن عمل صالح خالص.
- ٢- فله الحق إذا الولاية والحكم، وأن إليه الرجعى، حيث القضاء العدل، وعلى الإنسان أن يسمو إلى حيث التحرر من ولاية إبليس وشياطينه من الجن والإنس، فلا جبت هناك من ثقافة باطلة، وعاطفة فاسدة، وعصبية زائفة، ولا طاغوت السلطة والثروة.
- ٣- وهذا منطلق تحرر البشر من كل ألوان الفساد، ومن غرور أو تجبر أو تكبر أو تسليم لغير ولاية الرب الباقي وجهه.

لماذا تحوّل ما سُمّي بالربيع العربي في أكثر البلاد التي اجتاحتها إلى خريف دموي، حسب رأي أكثر المواطنين في تلك البلاد؟.

أنهر من الدماء، وبحار من الدموع، وعواصف من الآهات، وانهار مؤسسات الدولة، وتراجع اقتصادي فضيع.. تلك كانت حصيلة ذلك الربيع الخريف. لماذا؟.

إن ربنا سبحانه قد أحكم نظام ما خلق، وسنّ السنن لتدبير كل شيء، ومن ذلك جعل سنناً للإصلاح، وبالذات إصلاح النظام السياسي، ذلك لأن السياسة إذا فسدت أفسدت كل شيء. وكذلك قال ربنا سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

تلك السنن (الأنظمة) إذا رُوِّعيت رعاية تامة أثمرت نجاحاً باهراً، كالذي نجده في الحركات الإصلاحية الإلهية، وإلا فإن فرص النجاح تكون ضئيلة. والشعوب العربية التي تاقّت إلى الربيع، تجاهلت تلك السنن، فلم يكن نصيبها النجاح التام.

وهكذا كنا في تلك الفترة؛ أي منذ سنوات ثلاث، نتدبر في سورة القصص التي بيّن الله سبحانه فيها قصة حركة إصلاحية عظيمة، حيث بنو إسرائيل وقيادة نبي الله موسى عليه السلام انتصروا بإذن الله على فرعون وملئه، وقد بيّن ربنا من خلال تلك القصة السنن (الأنظمة) التي لا بد من رعايتها عند القيام بإصلاح الوضع السياسي، وقد حاولنا استفادتها بالمستطاع عند التدبر في آيات تلك السورة الكريمة.